صاحبة الحرير الأخضر

د/عبدالرحمن صالح العشماوي

العبيكان
Obeikan

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العشماوي، عبدالرحمن صالح

صاحبة الحرير الأخضر./ عبدالرحمن صالح العشماوي - ط٢

. - الرياض، ١٤٣٠هـ

٢٤٤ص؛ ١٤ × ٢١سم

ردمك: ٥-٨٣٩-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١- عائشة أم المؤمنين، عائشة بنت أبي بكر الصديق، ت ٥٨ هـ

٢- المرأة في الإسلام أ- العنوان

ديوي ٧، ٢٣٩ ٦٠٨١ / ١٤٣٠

رقم الإيداع: ٦٠٨١ / ١٤٣٠

ردمك: ٥-٨٣٩-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الثانية

١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر: العبيكان للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٥٦٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

قلبٌ خافق ... صدرٌ حنون ... نفسٌ شفَّافة ... حسٌّ مُرْهَف ... رؤية نافذة ... مشاعر دفَّاقة ... بصيرة ترى ما لا تراه العين المجرَّدة ... حنان ... عطف ... وفاء ... روضةٌ من المشاعر غنَّاء ... ركنٌ ركينٌ لا تصلح الحياة بغيره ... وأساس متين لا يستقر البناء بدونه.

سكنٌ ورحمة ومودَّة ... .. يد حانيةٌ في الرَّخاء والشدّة .. وعي وبصيرة وفهم وإخلاص.

كلُّ هذا يجتمع فيمن قال فيهن الرسول ﷺ: «إنما النساء شقائق الرِّجال»

نعم، يجتمع فيهنَّ إذا ارتفعن إلى مقام:

«صاحبة الحرير الأخضر»

ما أسعدني بأنْ أعقد في هذا الكتاب لقاءً بين «شقائق الرجال» و«صاحبة الحرير الأخضر».

وأكون أكثر سعادةً حينما

أهديه إليها وإليهنَّ.

د/عبدالرحمن العشماوي

١٤٢٥/٩/٢١هـ

بناء الإنسان

بناء الإنسان

هل يمكن أن يتمَّ بناء دون توفير الأدوات اللاَّزمة له؟

هل يمكن أن يطمع إنسان في بيتٍ معمورٍ يُكِنُّه من المطر والشمس، وتقلُّب الأجواء دون أن يبنيه بانٍ متقنٌ؟

وهل يمكن لمن يبنيه أن يُقيم بناءه على غير أساسٍ، ومن غير مواد البناء التي لا يقوم بناء دونها؟

سؤالٌ معروف الإجابة، ينقلنا إلى سؤالٍ آخر معروف الإجابة أيضاً:

هل يمكن أن يتم بناء الإنسان عقلاً وروحاً وقلباً وجسماً دون توفير الأدوات اللازمة لهذا البناء؟

هل نطمع في رؤية رجلٍ قادرٍ على العطاء، أو امرأة قادرةٍ على العطاء دون أن نبني عقليهما ونفسيهما بناءً قوياً يجعلهما قادرين على العطاء المتميِّز النافع لهما ولمجتمعهما وأمتهما؟

إنَّ بناء الإنسان هو الأساس الذي تقوم عليه جميع أنواع البناء الأخرى في حياة الأمم؛ إن بناء الإنسان كجذع الشجرة الشامخة لولا جذوره الضاربة في أعماق التربة لما أصبح شامخاً ثابتاً متفرِّع الأغصان.

إنَّها الجذور التي يستمد منها جذع الشجرة وأغصانها وسائل النمو والحياة.

إنَّ تحقيق هذا البناء مرهون بشعورنا جميعاً بالمسؤولية نحو أنفسنا وأهلنا وأبنائنا.

إنني حينما أرى فتاة مسلمة تائهة في غياهب هذا العصر، مأخوذةً ببريقه، تتحدث عن دينها حديث التي لا تعرف منه إلا الاسم، وتتحدَّث عن الثقافة حديث التي لا تحصِّل منها إلا ما يشبه الذرَّات الطائرة في الفضاء.

حينما أرى هذه الفتاة أقول:

ما أحوجها إلى لقاءٍ جميل مع صاحبة الحرير الأخضر؛ وحتى لا يطول أمَدُ الانتظار لذلك اللقاء أقول:

هيَّا .. إلى صاحبة الحرير الأخضر.

أهلاً بكم جميعاً، تفضَّلوا:

صاحبة الحرير الأخضر

يا لها من صورةٍ مشرقة، تستحق أن تُنقش على سويداء قلب كلِّ امرأة ...

ويا له من وجهٍ مشرق يستحق أن يختصَّ بقول الشاعر:

يَزيدك وجـــهـــه حُـــسْناً

إذا مـــــــا زدتَـــه نـظـــرا

حجرة البيان
«سموٌ في المعنى، وجمالٌ في العبارة،
ونزاهة في الفكر»

حجرة البيان

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَنْ لا نبيَّ بعده، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن الحقبة الزمنيَّة التي سبقت الإسلامَ في جزيرة العرب، لم تكن كغيرها من الحقب، لقد كانت متميِّزة بصورة عجيبة لا وسطيَّة فيها؛ ظلام دامسٌ في جانب العقيدة، وركامٌ خرافيٌّ أفسد الفطرة السليمة وسدَّ منافذَ الضَّوء في نفوس القوم وعقولهم، يصاحب ذلك إشراقٌ عجيب في البلاغة والبيان، وفصاحةٌ ساحرةٌ في اللِّسان، وعنايةٌ فائقةٌ من القوم ببراعة القول يتفاضلون بها فيما بينهم، وبها يتقدَّم رجالٌ، ويتأخَّر بها آخرون، بل تتقدَّم بها نساءٌ على رجال - بالرغم من سلبيَّة نظرة العربي إلى المرأة في الجاهلية قياساً إلى الرجل.

خَطابةٌ تجعل من البيان سحراً، وشعرٌ يحمل القوم على أجنحته المرفرفة، فيطير بهم إلى الفضاءِ البعيد، أو يَهوي بهم إلى قرارٍ سحيق.

أَلْهَى بني تغلبٍ عن كل مكرمةٍ

قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

إنها حقبة زمنيَّة متميِّزة أدبياً، كان للكلمة فيها دورُها العظيم، ووقْعُها الساحر في النفوس؛ مفاخراتٌ ومنافرات، وحكمٌ وخُطَب، ومعلَّقاتٌ شعرية يتناقلها النَّاس في جوٍّ من النَّشوه الأدبية والمتعة الفنية، تصغر عندها كلُّ نَشوةٍ ومتعة.

إنَّ مجالس القوم ومسامراتهم التي استطاعت ذاكرة التاريخ أنْ تحتفظ لنا بقَدْرٍ يَسيرٍ مما جرى فيها من بليغ القول شعراً ونَثْراً، قد هيَّأتْ للسان العربي من فُرص الفصاحة والبيان ما يندر أنْ نجد له مثيلاً في التاريخ البشري، حتى أصبح المجتمع العربي في تلك الحقبة مجتمع (الكلمة) تُسعده وتُشقيه، تعلو به وتهبط، تظلِّله بظلال الأمن حيناً، وتجرُّه إلى ساحات القتال والحرب الضَّروس التي لا هَوادةَ فيها أحياناً أخرى.

(مجتمع الكلمة) التي لا تعرف موقع الوسط أبداً، فهي؛ إمَّا أنْ تُضيء فتنشر الضَّوءَ في كل ما يحيط بها، وإما أنْ تُظْلِمَ فتنشر الظلامَ في كلِّ ما يحيط بها.

مجتمع الكلمة التي تمدح فتفرط في المديح، وتفخر فتغلو غلوّاً لا يقبله العقل السليم، وتهجو فما تدع لفضيلةٍ عند من يُهجى مكاناً،

وتصف فتحوِّل طبائع الأشياء، وتغريك بهذا التحويل حتى تظن أنه صواب وما هو بصواب... وهي مع كل ذلك تصقل الألسنة، وتُبرز المواهب، وتكوِّن في المجتمع العربي قاعدةً صلبة للغةٍ قويَّة أصيلة ظلَّتْ تترقَّى حتى أصبحتْ جديرة - في صورتها البيانية المُثْلَى - بأن تكون لغةَ القرآن الكريم، وأن يكون نصيب الرسول ﷺ منها نصيبَ «مَنْ أوتي جوامع الكلم» «فقد كان - عليه الصلاة والسلام - في اللغة القرشية التي هي أفصح اللُّغاتِ وأَلْيَنُها بالمنزلة التي لا يُدافَع عليها، ولا ينافس فيها، وكان من ذلك في أقصى النهاية»(١).

وعلى الرغم من شيوع هذا الجوِّ اللغويِّ في جزيرة العرب آنذاك، إلا أنَّ البيوت والقبائل تتفاضل فيما بينها بياناً وفصاحةً، ويكون نصيب الأجيال الناشئة من هذه الفصاحة وذلك البيان نصيباً وافراً يتفاضل بتفاضُل قبائلهم وبيوتهم، فلا تعدم أنْ ترى في كتب التاريخ والسِّيَر أخباراً تُروى عن غلامٍ صغير بَهَر أَقْطَاب البيان وروَّاد الفصاحة بعذوبة لغته، وسلامة منطقة، وفصاحة لسانه. أوْ تسمع عن امرأةٍ تصوغ كلماتها بياناً بديعاً فتُقَدَّم على كثير من فصحاء الرِّجال، وما الذي يمنع من ذلك ما دامت البيئة بيئة فصاحةٍ وبيانٍ بديع، وأدبٍ رفيع؟!

(١) مصطفى الرافعي، تاريخ آداب العرب ٢/٢٨٤، نشر دار الكتاب العربي، لبنان ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

لقد كان نصيب (صاحبة الحرير الأخضر) من تلك الثروة اللغوية وافراً، وكانت بيئتها الخاصَّة متميِّزة بعقولٍ راجحة، وقلوب خافقة، ونفوسٍ واثقة، وألسنة فصيحة.

ولماذا لا يكون نصيب (صاحبة الحرير الأخضر) من البلاغة والبيان وافراً، وأبوها من أعلم العرب بأنسابها ومنازل قبائلها؟!

ألم يكن هو المرجع الذي أمر الرسولُ ﷺ حسَّان بن ثابت رضي الله عنه، بالرجوع إليه ليفصِّل له أنساب القوم؟

ألم يكن أبوها هذا معجباً بجيِّد الشعر حافظاً له يتمثل به في كثيرٍ من المواقف؟

إنَّ بيتاً يكون راعيه بهذه الصفات لجديرٌ بمكانةٍ عاليةٍ في عالم الفصاحةِ والبيان، وإنَّ فتاةً نجيبةً ذكيَّةً تعيش في هذا البيت لجديرة بأن تكون من فصاحة الكلمات في الذروةِ والسَّنام.

لقد عاشت صاحبة الحرير الأخضر في هذه البيئة العربية الخالصة، على شاطئ ذلك النهر البياني المتدفق الذي يبدأ منبعه الصافي من قوله تعالى: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ﴾ ويسري صافياً نقياً عَبْرَ سُوَر القرآن الكريم وآياته المعجزة، وتمتد فروعه إلى قلوب المؤمنين به فتغرس فيها يقيناً لا يتزعزع، وإلى ألسنتهم فتسقيها فصاحةً نقيَّة لا تشوبها شوائب الجاهلية التي صبغت

كثيراً من كلمات اللغة العربية وأساليبها بصبغة الانحراف الجاهلي والضلال، ثم يصبُّ ذلك النهر البياني في أدب الأمة الإسلامية كلِّها لا يتوقف أبداً على مرِّ الأيام.

ثم تهيَّأ لصاحبة الحرير الأخضر - بعد ذلك - العيش في بيت النبوة الطاهر، البيت الذي تبدأ منه فصاحة الكلمة ونقاؤها وإشراقُها وإليه تنتهي.

البيت الذي أُوتي صاحبه - عليه الصلاة والسلام - القرآن ومثلَه معه، فكان مدرسةً عظيمة في نزاهة الكلمة، ونقاءِ العبارة، وصفاءِ الأسلوب، وصدق المنهج. كيف لا، وهو الذي لم يكن - عليه الصلاة والسلام - شتَّاماً ولا لعَّاناً ولا يرضى بالفاحش من القول؟

عاشت (صاحبة الحرير الأخضر) في هذا البيت الجليل محتلَّة مكاناً خاصاً من قلب صاحبه، فجمعت المجد والعلم والبيان من أطرافها، وبدا ذلك واضحاً في كلِّ كلمة رويت عنها.

قُدْرَةٌ عجيبة على انتقاء العبارة، وإتقان التصوير الفنِّي للموقف، ووضعٌ للشاهد في موضعه الصحيح وثقة كبيرة في التعامل مع اللغة.

تأمَّل معي الصورة التالية التي تصوِّر بها (صاحبة الحرير الأخضر) موقفاً من المواقف.

قالت: «كان رسول الله ﷺ يخصف نعله وكنت أغزل، قالت: فنظرتُ إلى رسول الله - عليه الصلاة والسلام - فجعل جبينه يعرق، فقلت: يا رسول الله، نظرت إليك فجعل جبينك يعرق، وجعل عرقُك يتولَّد نوراً، فلو رآك أبو كبير الهذليّ لعلم أنَّك أحقُّ بشعره.

قال: وما يقول يا عائشة أبو كبير الهذليّ؟

فقالت: يقول:

ومُبرأٍ من كلِّ غُبَّرِ حَيْضَةٍ
وفساد مُرضعةٍ وداءِ مُغْيِلِ
وإذا نظرتَ إلى أَسِرَّةِ وجهه
بَرَقت بُروق العارض المتهلِّل

قالت: فوضع ما كان في يده، وقام إليَّ فقبَّل ما بين عينيَّ وقال:

جزاكِ الله يا عائشة خيراً، ما سُرِرْتِ مني كسروري منك»[1]

صورة أدبيةٌ رائعة، تتجلَّى فيها دقَّة التصوير للموقف وإشراق العبارة، وسلاسة الأسلوب، مع ما يُعْرَض في ثنايا ذلك من جوانب الحياة الأُسَرية الهادئة المستقرة، وذلك الجوّ العائلي المفعم بالحب الصادق في بيت النبوَّة الطاهر.

(١) الحافظ الإصبهاني: حلية الأولياء: ٢/٤٥.

إنَّ تعامل (صاحبة الحرير الأخضر) مع الكلمة تعامُلُ العارف بمواطن جمالها وقوَّتها وبيانها، والمدرك لمكامن الرَّوعة والتأثير فيها، تنتقي العبارة التي تلائم الموقف في غير تكلُّف أو تصنُّع، وتحسن استخدام الشاهد الشعري في مكانه الملائم الذي لا يصلح له سواه، وتربط المعنى بالمعنى، والفكرة بالفكرة والصورة بالصورة.

وهذه مقدرة بيانية لا تتحقق إلا لأصحاب المواهب المتميِّزة.

ومن هنا كانت فكرة هذا «الكتيِّب» الصغير الذي يحاول أن يعبر جسور حقب الزمان الممتدَّة عبر خمسة عشر قرناً ليقف على ذلك الشاطئ الجميل يتأمل نهر الفصاحة المتدفق من بيت النبوَّة الطاهر، من خلال بعض القطع الأدبية الراقية التي رُويت لنا عن (صاحبة الحرير الأخضر) أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، أحبّ نساء الحبيب المصطفى ﷺ إليه.

وفي مقدمة تلك النماذج الأدبية (حديث الإفك) المنقولُ إلينا في كتب الحديث الصحيحة بنصِّه الأدبي البديع الذي صاغته أم المؤمنين في أنصع عبارة، وأبلغ بيان.

إنَّه الأدب المتدفِّق الذي لم تدنِّسْه الصَّنعةُ المتكلَّفة، أو التكلُّف المصطنع، الأدب الذي غفلت عنه معظم الدراسات النقدية الأدبية في أدبنا العربي قديمه وحديثه، حيث شُغِلَتْ عنه بصراعٍ يمكن أنْ يُوصف بالعُقْم أحياناً؛ حول اللفظ والمعنى، وما يتبع ذلك من آراءٍ

نقديةٍ متضاربة شغلها الأدب الصناعي الذي انحرف - غالباً - عن نزاهة الكلمة وبراءتها.

والأمثلة على ذلك كثيرة، منها النقائض، والأغراض الشعرية التي أفسدها الغلوّ، ولعبت بمصداقيَّتها المبالغات والأهواء، إنها محنةُ «تسلُّطِ أصحاب الصَّنعة والتكلُّف على الأدب، فصاروا يتخذونه حرفةً وصناعة ويتنافسون في تنميقه وتحبيره، ليُثبتوا براعتَهم وتفوُّقَهم، وليصلوا به إلى أغراض شخصية محضة»[1] وليس معنى هذا أننا نغفل الأثر الإيجابي لتلك الدراسات النقدية، ولكننا ننبِّه إلى ما غفل عنه كثير من النقاد من كنوزٍ أدبيَّة تمتلئ بها كتب الحديث النّبوي والسيرة، والتاريخ الإسلامي العريق.

والآن ...

أدعو القارئ الكريم، والقارئة الكريمة، للدخول إلى بساتين الأدب الراقي، والكلمة الجميلة المؤثرة، إلى البلاغة العربية في صفائها ونقائها، وأدعوك إلى حجرة العلم والأدب، حجرة صاحبة الحرير الأخضر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، لنجلس مع الجالسين وراء السِّتر المضروب بينها وبين الناس، لنتعلَّم منها كيف يكون الأدب، سموّاً في المعنى، وجمالاً في العبارة، ونزاهةً في الفكرة.

---

(١) أبو الحسن الندوي، نظرات في الأدب ص: ٢١، دار البشير للنشر، الكتاب الثاني في سلسلة إصدارات رابطة الأدب الإسلامي، ط: ١٤١١هـ.

ولنستمع إليها وهي تعرض معاناتها في أرقى عبارة وأجمل أسلوب.

أسأل الله لي ولكم التوفيق في الدنيا والآخرة إنه سميع مجيب «آمين».

عبدالرحمن صالح العشماوي

الباحة، بني ظبيان - قرية عَراء

١٤١٦/٣/١٧هـ

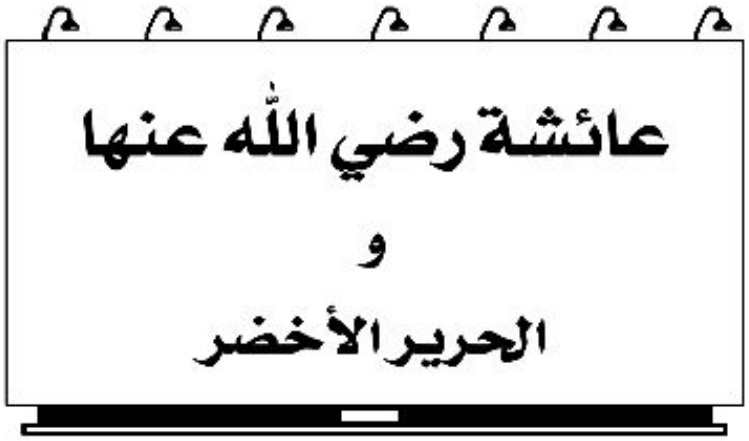
عائشة رضي الله عنها
و
الحرير الأخضر

عائشة رضي الله عنها والحرير الأخضر

لمكة المكرمة أن تسعد وهي ترى بواكير فجرٍ جديد، يُطلُّ عليها من هناك من فوق غار حراء...

إنها الرحلة الجديدة في عالم الإيمان واليقين، ستبدؤها مكة في موكبٍ روحيٍّ فريد، يقوده ذلك الفتى اليتيم الذي اصطفاه الله تعالى ليكون أفضل خلقه، وخاتم أنبيائه ورسله.

لمكة المكرمة أن تنفض عن أهدابها ظلام الجاهلية الذي حال بينها وبين مصادر النور...

لها أن تصحو صباحاً على آياتٍ بيّناتٍ تُتلى، بعد أن كانت لا تصحو إلا مذعورةً على صيحات أبي جهلٍ وأبي لهبٍ وأمية بن خلف.

لمكة أن تقول:

مَنْ أبو جهل، ومن أبو لهب، ومَنْ أميَّة بن خلف؟؟. بل إنَّ لها وهي في نشوة السعادة أنْ تتلوَ في خشوع:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾.

ولها أن ترفع صوتها الشجيّ، تتلو مع نبيِّها الكريم:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾.

لمكة أن تبتسم بعد طول عُبوس لأنَّ فتاها اليتيم قد أصبح (خاتم النبيين)، وقبل ذلك كان الرَّجُلَ الأمين الذي يتفق على أمانته جميع المحبين والمبغضين.

كأني بجبال مكة ووهادها ... بصخورها وحبات رمالها ... بأوديتها وشعابها تلتفت إلى الوراء، لترى ذلك الركام الهائل من عادات الجاهلية الجهلاء، وتقاليدها البالية وأنظمتها الفاسدة، ثم تُلقي بنظرة حانية على وجه ذلك الفتى المبارك .. النبيّ الأمي، فما تكاد ترى في وجهه إشراقة نور الإيمان، حتى تُردِّد في يقين:

تبارك الله أحسن الخالقين الذي أسعدني برؤية هذا النور الصافي بعد ذلك الظلام الرهيب.

إنها رحلةٌ جديدة يامكة الخير، لها روعتها وجمالها، ولها مع ذلك تعبها وعناؤها.

أبشري يابلْدة الخير فسوف تخرجين من سجن الجاهلية، وسوف تنطلقين من قيودها الرَّعناء .. ولكن ذلك سيكون بعد صراع عنيفٍ بين الحقِّ والباطل، بين الإيمان والكفر، ولا تخافي ولا تحزني..

سيحملك فتاك الأمين إلى قمم الإيمان، ولكنْ بعد أن يزحزح من الطريق سدود الجاهلية التي بُنيت على الضلال المبين.

لكأنني بك يا مكة الخير تتساءلين في أسى:

أما ترى عيون عُصاة الكفَّار وعُتاة قريش ما أراه من دلائل الحق وبشائر الخير؟

أما يستطيعون - وهم أرباب الفصاحة - أنْ يفهموا ما يتلوه عليهم هذا النبيُّ الكريم؟؟

وإذا كانوا يفهمون - وهذا ما أكاد أجزم به - فلماذا يظلون يكابرون؟!

صبراً يا بلد الخير فإنَّ لكل أجلٍ كتاباً.

لقد كان عُتاهُ المشركين في جبروتهم وغيِّهم يتقلبون يصرخون ويتوعَّدون، وعلى جُثث المؤمنين الصامدين من عبيدهم وإمائهم يتسامرون، وما كانوا يدركون - حينها - أنَّ الأرض تتزلزل من تحتهم، وأن النور يسري في عروق مكة دون أن تراه عيونهم، وأنَّ أنهار الإيمان تجري في القلوب الظَّماء، فتبدِّد عنها الأهواء، وهم في سكرتهم يلعبون.

نعم يا مكة الخير، إنَّ محمداً هو رسولُ الله عليه الصلاة والسلام، وهو خاتم الأنبياء، وسيِّد المرسلين ولكنَّ قومك لا يفقهون.

﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

إنه لا ينطق عن الهوى، بل يتحرَّك بإرادة الله، وينفِّذ ما يُؤمَر به، إنه المؤيَّد بوحي السماء.

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

وأنَّى لقوى الأرض مهما كانت أن تواجه إرادة الحيِّ القيوم؟؟

إنَّ حالة الرسول ﷺ حالةٌ فريدة، فهو ليس طالب مالٍ ولا جاه، وليس رجلَ ثورةٍ سياسيةٍ أو اجتماعية أو اقتصادية، كلا، ولكنّه رسول الله سبحانه وتعالى وكفى.

هذه هي الحقيقة التي عجزت عن استيعابها أذهان مشركي قريش المشحونة بهياكل الأوثان وصورها؛ ولذلك تخبَّطوا في التعامل مع هذه الحالة الفريدة حتى خسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

نعم يا مكة الخير...

إنَّها النبوَّة... والنبوَّةُ تعني تلك الصلة المتميِّزة التي لا تنقطع بين النبيِّ الكريم وبين الذي اصطفاه الله نبياً من فوق سبع سماوات «ربّ العالمين».

هنا، في هذه القمة نشأت علاقة (صاحبة الحرير الأخضر) بسيِّد الخلق عليه الصلاة السلام، فكانت علامة قوية راسخةً مرتبطة بالسماء.

مُرْتبطة بالسماءْ؟

نعم ...

إنَّ أباها (أبا بكر) هو الرجل الأوَّل الذي قال للرسول عليه الصلاة والسلام: «نعم» بملءِ فمه ..

ثم لم يقل له بعدها: «لا» أبداً ..

كان إيمانُ أبي بكر الصّديق رضي الله عنه أقوى رسوخاً من الجبال الراسيات.

لقد كان ذا رؤية صافية، يرى بها حقيقة الصلة المتميِّزة بين محمد عليه الصلاة والسلام وبين خالقه ومرسله إلى الناس أجمعين - سبحانه رب العالمين -.

ولذلك ظل الصِّديق يواجه كلَّ مرحلةٍ من مراحل الدعوة، وكل حادثة من حوادثها الكبرى والصغرى، وكل كلمة ينطق بها الذي لا ينطق عن الهوى، ظل يواجه ذلك كلَّه بكلمة «صدقت».

فكان جديراً بلقب الصدِّيق رضي الله عنه.

أما ابنته (صاحبة الحرير الأخضر) عائشة، فقد اتصلتْ اتصالاً قوياً بوحي السماء، من خلال أبيها أبي بكر الصديق أوَّلاً، ثم من خلال زواجها المبارك من رسول الله ﷺ، حيث أكرمها الله سبحانه وتعالى بالدخول إلى بيت النبوَّة من أوسع الأبواب، وزادها ربُّها إكراماً بدخولها إلى قلب رسول الله ﷺ حتى أصبحت أحبَّ زوجاته إليه.

كيف دخلتْ بيتَ النبوَّة؟

وما قصَّة الحرير الأخضر؟.

«عن ابن أبي مُلكية عن عائشة رضي الله عنها أن جبريل عليه السلام جاء بصورتها في خرقة حرير خضراء إلى النبيّ ﷺ فقال: هذه زوجتك في الدنيا والآخرة».

وفي رواية أخرى: أن جبريل عليه السلام عرض على الرسول ﷺ صورة عائشة في سَرَقةٍ حريرٍ في المنام لما توفيت خديجة[1].

نعم يا مكة الخير ..

إنّها النبوة المتصلة بالسماء وكفى ..

وإنها صاحبة الحرير الأخضر التي اختارها الله سبحانه وتعالى زوجاً صالحة لرسوله في الدنيا والآخرة.

وما أروعها من إشارة لطيفة دقيقة رويت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حينما انتشر بين الناس حديث الإفك.

فقد رُوي أن عمر بن الخطاب قال لرسول الله عليه الصلاة والسلام: مَنْ زوَّجها لك يا رسول الله؟

قال: الله تعالى.

---

(١) أسد الغابة، ٦/١٩١.

قال عمر: أفتظن أن الله دلَّس عليك فيها - سبحانك هذا بهتان عظيم - نعم...

إنه الارتباط بالسماء.. وما دام جبريل عليه السلام قد عرضها في قطعة الحرير الأخضر على الرسول ﷺ وأخبره أنها زوجه في الدنيا والآخرة، فإن الله سبحانه وتعالى لا يختار لرسوله إلا طاهرةً مطهَّرة، بعيدةً عن مواطن الرِّيبة والشك.

طُوبى لكِ يا مكة، فها هو ذا فَتَاكِ اليتيم قد أصبح سيّدَ ولد آدم وخاتم الأنبياء والمرسلين، ورسول الثقلين. لكِ بعد هذا - يا مكة الخير - أنْ تنظري بعين الاحتقار إلى بَهْرَج الجاهلية، ومظاهرها الزائفة، وأن تشكري الخالق العظيم على ما هيَّأ لكِ من نور الإسلام، الذي بدَّد عنك ظلام الأهواء والأوهام.

لك أن تردِّدي مع الكونِ كلِّه:

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

وبشرى لكِ يا مدينة الخير، يا طَيْبَةَ الطيبة، بشرى لكِ بهذه الهجرة المباركة، وبهذا النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، وبالمهاجرين معه.

لكأنني بمكة والمدينة تنظران بإعجاب إلى بيت النبوة الطاهر، وإلى تلك المرأة الجليلة الفاضلة، العالمة، الأديبة التي قال عنها

زوجها وحبيبها عليه الصلاة والسلام: «**والله ما نزل عليَّ الوحي، وأنا في لحاف امرأةٍ منكنَّ غيرها**».

والتي قال لها ذات يومٍ: «**ياعائشُ، هذا جبريل يُقرئك السلام**، فقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته - ترى ما لا أرى -».

والتي قال عنها عليه الصلاة والسلام، فيما رواه أَنَسُ بن مالك:

«فضل عائشة على النساء، كفضل الثَّريد على سائر الطعام».

لكأنني بمكة والمدينة تنظران إلى هذه المرأة بإعجابٍ وتقدير؛ وهي تُفتي، وتعلِّم الناس، وتُناقش وتعظ النِّساء، وتفسّر آيات القرآن الكريم، وتُنشد الشعر الأصيل النَّقيّ.

تنظران إليها، ثم تتذكَّران صورتها في طفولتها، وهي تنمو وتترعرع في بيتِ إيمانٍ ويقين، وعلمٍ ووعي، وفصاحةٍ وبلاغة.

وإن مكَّة بالذات لتلوح بذهنها (خرقة الحرير الخضراء) التي عرضها جبريل على الرسول ﷺ فتقول: ﴿ **ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ** ﴾.

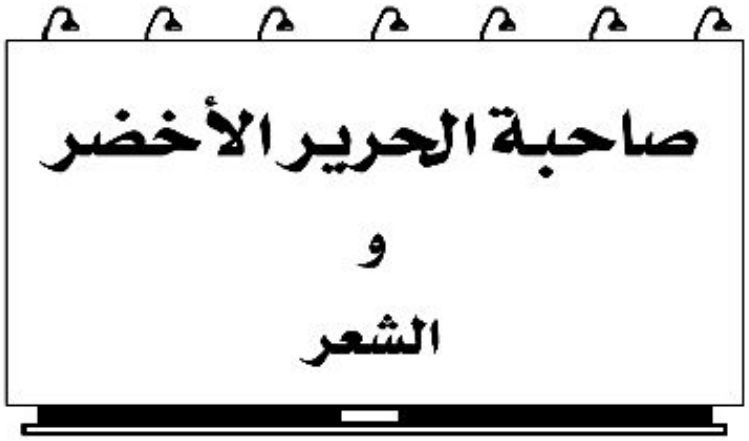
صاحبة الحرير الأخضر
و
الشعر

سيِّدة اللُّغات

اللغة العربية سيِّدة اللُّغات، بها تتشرَّف الكلمات، وببلاغتها وفصاحتها تُصْقَلُ المَلَكات، وتطيب على ضِفافِ أنهار بيانها الوقفات.

لغةٌ لها نَبْضُها المتميِّز، وإيقاعها المتفرِّد، وصياغتُها البديعة، ومقاماتها الرفيعة.

لغةٌ أَنْبَتَها الله في جزيرة العرب نباتاً حَسناً، وسخَّر لها مَلَكاتِ قوم يتفاضلون بالفصاحة، ويتقدَّم بعضهم على بعض بالبلاغة والبيان، ويتوقَّف أحدهم أمام حكمة جرت على لسان حكيم، أو جملةٍ تدفَّقت من فم خطيب، أو بيت شعر جادت به قريحة شاعر، يتوقف أمام ذلك توقُّف المسحور الذي لا يكاد يملك من أمره شيئاً.

ولماذا لا يكون الأمر كذلك؟ والرسول ﷺ يؤكد لنا سحر البيان بقوله: «إن من البيان لسحراً»، وهو الذي قال:

«أنا أفصح العرب بَيْدَ أني من قريش».

ولو لم تكن هذه ميزة كبيرة لما وردت على لسانه ﷺ بهذه الصورة من الإشادة والتكريم.

في جزيرة العرب تفرَّعت أغصان اللغة العربية الفصحى بين روائع النثر من خطابة وحكمة ومنافرات ومحاورات، وبين بدائع الشعر من أبياتٍ ذائعة الصيت ومناقضاتٍ ومعارضات ومعلَّقات.

هنالك نبتت شجرتها، وثبتت جذورها، وتفرَّعت أغصانها، وأينعت ثمارُها.

وهنالك سرى بها الشعر العربي الفصيح، والنثر البليغ وهما يتسابقان في الميدان، ويتباريان ويتنافسان، حتى إذا وجد الشعر مجاله الأرحب، أطلق أوزانه للريح، وتجاوز غيره في ذلك الميدان الفسيح.

ديوان العرب

هنا صار الشعر ديوان العرب، حلَّقت لغتهم بأجنحته في آفاق الفصاحة والبيان، تنقل إلى الناس أجمل الصور البلاغية، وأنقى الأساليب البيانيَّة، وأرقى الأوزان والقوافي، وتغذِّي ألسنتهم بفصيح القول، وجميل العبارة، وبديع الأسلوب.

الشعر .. نبع اللغة الذي تفرَّعت منه أنهارُها، وامتدت عبر القبائل العربية تسقي منابت شجر الفصاحة، وتروِّي مشاتل أزهار البلاغة، وتغسل الشواطئ من كل كلمة دخيلة، أو لحنٍ مَشين.

ولعل ذلك هو الذي لا يجعلنا نبتعد عن الحقيقة إن قلنا: إنَّ الشعر عند العرب - قبل الإسلام - كان هو اللغة، وإن اللغة كانت هي الشعر؛ فمن أراد أن يتدفق بيانه، ويستقيم على نَهْج الفصاحة لسانه، وتسلم عبارته من الوهن، وأسلوبه من الخلل، فما عليه إلا أن يحفظ ما يستطيع من الشعر العربي البديع، وعندها .. سيرى أنَّ اللغة أسلمتْ إليه العنان، وأشارت إليه بالبنان، وفتحت له مغاليق البيان، ومنحته ثروة لغوية عظيمة تسعفه بأجمل الكلمات وأرقاها.

ولعل هذا هو الذي جعل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول: «رَوُّوا أولادكم الشعر تعذبْ ألسنتهم».

يالها من كلمة عميقة تدل على وعي كبير بجمال اللغة العربية. «تهذب ألسنتهم»! نعم، إنها عذوبة الفصاحة العربية وحلاوتها، تعرفها صاحبة الحرير الأخضر معرفة الخبير بها، المدرك لمكامن الجمال فيها.

ولذلك أكدت - رضي الله عنها - في كلمتها أن رواية الأولاد للشعر من أهم أسباب إتقانهم للغة، ومن أعظم وسائل استقامة ألسنتهم بها حتى تصبح عَذْبة حلوة.

هنا يتجلَّى قدر اللغة عند عائشة، ومكانة عائشة عند اللغة، وهنا تبرز الميِّزات التي سيجلِّيها لنا ما نتناوله من النصوص التي أثرتْ بها أمُّنا (صاحبةُ الحرير الأخضر) لغتَنا العرَبية وأدبَنا العربيَّ على مَرِّ العصور.

إنَّ هذه العلاقة المتميِّزة بين أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - وبين اللغة العربية هي التي سهَّلت أمامها دروب الفهم الصحيح لما تسمعه من نصوص البيان العربي خطابةً وشعراً، وهي التي فتحت أمامها أبواب الإدراك لما تسمعه من آيات الوحي المبين، ومن أحاديث سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام، وهي التي طوَّعت لها أساليب الفصاحة والبيان، فنقلت إلينا صوراً مشرقة حيَّةً من حياة الرسول ﷺ، وموافقه، وأفعاله وأقواله في حَلِّه وترحاله، وفي سلمه وحربه، وصوراً أخرى من حياتها معه وتجاربها مع صواحبها أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، وصوراً أخرى مؤثرة من معاناتها في الحياة، وخاصة فيما يتعلَّق بالحدث الأعمق والأضخم والأبعد غَوْرَاً في نفسها «حديث الإفك».

المذاق الخاص

إن تعامل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مع اللُّغة ذو قيمة خاصة، ومذاقٍ خاص.

ولا شك أن الله سبحانه وتعالى قد منحها عقلاً راجحاً، وفهماً ثاقباً، ونفساً كبيرة، وقلباً حيَّاً نابضاً بالحب والعطف، ونية الخير، ومن هنا كانت لغتُها ذات عُمْقٍ خاص، وذات قدرة فائقة على التأثير في نفس من يقرؤها.

قال ابن اختها عروة بن الزبير - رضي الله عنهم -: «ما رأيت أحداً أعلم بفقهٍ ولا بطبٍّ ولا بشعر من عائشة رضي الله عنها»[1].

«لقد صحبت عائشة فما رأيت أحداً قط كان أعلم بآيةٍ نزلت، ولا بفريضةٍ ولا سنة ولا شعر ولا أروى له، ولا بيوم من أيام العرب ولا بنسبٍ ولا بقضاء، ولا طبٍّ منها، وربما حفظت القصيدة ستين بيتاً أو أكثر من أوَّل سماعها»[2].

---

(١) أسد الغابة: ١٩٢/٦.

(٢) جوامع السيرة ص: ٢٧٦، ومرويات أم المؤمنين عائشة في التفسير للدكتور سعود الفنيسان ص: ١٠.

هنا شهادةٌ عالية على تميُّز صاحبة الحرير الأخضر، وتأكيدٌ للصفات الممتازة التي أنعم الله عليها بها، وهي صفات - كما نرى - جديرة بأن تؤهِّل صاحبتها لذلك الاختيار الإلهي العظيم، الذي نُقِلَتْ به صورتها على خرقة حرير خضراء بواسطة أمين وحي السماء، إلى سيد الأنبياء.

الأمر يتجاوز العناية باللُّغة في حد ذاتها، ويصبح أشمل وأوسع بما عرف عن عائشة رضي الله عنها من إلمامٍ بعددٍ من المعارف والعلوم.

فهي تجمع بين علمها بالقرآن والسنة والفقه والطبِّ وتاريخ أيام العرب، والقضاء والأنساب، وهذه صفاتٌ تضعها في مصافِّ العلماء الأجلاء الذين هم مصابيحُ الأمة ومرشدوها إلى الخير.

ثم هي بعد ذلك وقبله على إلمامٍ كبير بأصول اللغة وفروعها، وكلُّ ذلك قد تحقَّق لها بسبب عنايتها وعلوِّ همتها من جانب، وذكائها وسعة فهمها من جانب آخر.

ألم يخبرنا عروة بن الزبير أنها ربما حفظت من الشعر ستين بيتاً أو أكثر من أوَّل سماعها؟؟.

هنا تبرز لنا موهبة نادرة تتمثَّل في سرعة الحفظ وجودته مع

عمق الفهم للمعاني والأفكار، وهذا كما نرى لا يتأتَّى إلا لمن منحه الله بفضله الذكاء والفطنة والوعي.

ستون بيتاً أو أكثر ترسخ في ذهن عائشة من أوَّل سماعها!! إنها ثروة لغوية هائلة بلا شك.

ثروة أدبية

وها هي ذي (صاحبة الحرير الأخضر) تصبح مثالاً كبيراً لعظمة الدين الإسلامي الذي يفتح آفاق العلم والأدب الفسيحة أمام كل مسلمٍ ومسلمة؛ لينهلوا من مناهلها الصافية النقيَّة، وليرتفعوا بثقافة الأمة وفكرها وأدبها ولغتها عن أوحال الهوى والرذيلة.

يقول المقداد بن الأسود: «ما كنت أعلم أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ أعلم بشعرٍ ولا فريضةٍ من عائشة رضي الله عنها»[1].

هكذا نجد الإشادة بعلمها بالشعر عاملاً مشتركاً بين معظم الذين تحدَّثوا عنها من الصحابة، ولا شك أن في ذلك شهادة ذات قيمة كبيرة بتفوُّق صاحبة الحرير الأخضر لغوياً وأدبياً.

بل إنها هي تؤكد لنا هذا التميُّز في عنايتها باللغة العربية من خلال الشعر، فتقول - فيما رواه عنها ابن أبي ملكية -: «رحم الله لبيداً كان يقول:

قَضَّ الُّلبـــــــانَةَ لا أبالكَ، واذهب

والحقْ بأســـــرتك الكرام الغُـــــيَّبِ

(١) العقد الفريد: ٥/٢٧٤.

ذهب الـذيـن يُعـــاش فـي أكـنـافـــهـم

ويـقـــيتَ فـي خَـلْـفٍ كـــجلد الأجـــربِ

ثم تقــول: إنـي لأروي ألفَ بيتٍ للبــيــد، وإنه أقلُّ مــا أروي لغيره»[1].

إذن فنحن أمام ثروة أدبية كبيرة، تستحق أن يقف عندها دارسو الأدب والشعر وقفات طويلة، تخرجهم من سيطرة رواة الشعر والأدب الذين تسيِّرهم مصالحهم وأهواؤهم وعصبيَّاتهم القبلية والسياسية.

نعم، إن امرأة كريمة تروي لشاعر واحد ألف بيت من الشعر، وهو أقل ما تروي لغيره من الشعراء، لجديرةٌ أن تحظى حياتها العلمية والأدبية بالعناية والدراسة، فكيف إذا كانت هذه المرأة الكريمة هي صاحبة الحرير الأخضر، أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(١) خزانة الأدب للبغدادي: ٣/٢١٦.

ينابيع وأنهار

أيها القراء الكرام..

قفوا معي الآن أمام لوحةٍ من التاريخ معلَّقةٍ في الأفق، تسكب عليها الشمس دفقاتٍ من نورها الصافي، تُبرز أمامنا - بوضوح - كلَّ حرفٍ نُقش عليها، انظروا إلى تلك اللوحة الرائعة واقرؤوا معي ما كُتب فيها: «يُروى أن رسول الله ﷺ سمع عائشة - رضي الله عنها - تنشد شعر زهير بن جناب:

ارفع ضعيفك لا يَحُرْ بك ضعفُه

يوماً فتدركَه عواقبُ ما جَنَى

يَجزيك أو يُثني عليك، فإنَّ من

أثنى عليك بما فعلْتَ كمن جزى

فقال عليه الصلاة والسلام - فيما روي عنه -: «صدقت يا عائشة، لا يشكر اللهُ مَنْ لا يشكر الناس»[1].

ما رأيكم في مضمون هذه اللوحة التاريخية الجميلة؟؟

أرأيتم هذه المرأة (قدوة نساء المسلمين) وصاحبة الحرير

(١) العقد الفريد: ٥/٢٧٤.

الأخضر، كيف تقطف من دوحة الشعر العربي الأصيل ما تريد من الثمار، وهي لا تفعل ذلك دون وعي بنوع الثمار التي تقطفها، كلاَّ، إنها تختار فتحسن الاختيار، وتقطف فتحسن القطف، وتنقل إلينا ما قطفت فتحسن النقل، وما أجلَّه من مقام وما أعظمها من نعمة أن تحظى بهذه التزكية النبوية - وهي أهلٌ لها -: صدقت ياعائشة».

هنا، لغةٌ عربية فصيحة عظيمة، لغةٌ واسعة الأفق، فسيحة الفِناء، عريقة الأصل، لغةٌ تألَّقت في جزيرة العرب قبل الإسلام شعراً ونثراً، ثم نزل بها القرآن الكريم فرفعها إلى الأعلى، وزادها تألُّقاً وجمالاً ورسوخاً.

وهنا امرأة كريمة، ذات خُلُق كريم، وعقل راجح، وذهنٍ واعٍ، ونفسٍ مطمئنة. وهي زوجة لأفضل خلق الله وأفصح العرب قاطبة، وبنتٌ لأحب أصحاب رسول الله ﷺ، وأفضلهم عنده، وهي بعد ذلك أم للمؤمنين أجمعين، وهي العالمة الأديبة الفصيحة التي تعرف كيف تتعامل مع لغة القرآن، وكيف تختار ما يليق من ألفاظها وأساليبها وشواهدها بالموضوع الذي تريد الحديث عنه.

وهنا رواياتٌ وأحاديث، وحكم وأمثال، وقصصٌ وعبر صاغتها لنا (صاحبة الحرير الأخضر) من تلك اللغة الخضراء، فرأينا بساتينَ وحدائق ذات بهجة، ورأينا ينابيع وأنهاراً، وزهوراً وأشجاراً.

ما ظنكم بأدب النبوَّة؟

يُروى عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أنه خرج بعد زيارته لعائشة متكئاً على عبدها ذكوان، وهو يقول: «والله ما سمعت - قَطُّ - أبلغ من عائشة، ليس رسول الله ﷺ»[1].

وقال عنها موسى ابن طلحة فيما رواه الترميذي: «ما رأيت أحداً أفصح من عائشة»[1].

أما الشَّعبيُّ فهو يتعجَّب من فقهِها وعلمها ويقول: «ما ظنكم بأدب النبوة»[1].

ويروي الحاكم في مستدركه عن الأحنف بن قيس قوله: «سمعت خطبة أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - وخُطب الخلفاء إلى يومي هذا فما سمعت الكلام من فم مخلوقٍ أفخم ولا أحسن منه من في عائشة رضي الله عنها»[2].

هذا غيض من فَيْضٍ من الشهادات الموثَّقة التي أطلقها أهل

---

(١) تهذيب سير أعلام النبلاء: أ:١ص: ٥٤ رقم الترجمة ١١٩.

(٢) السيدة عائشة أم المؤمنين وعالمة النساء. تأليف عبدالحميد طهماز ص: ٢٢١.

فصاحةٍ وبلاغةٍ وبيان في تأكيد هذا التميزُّ اللغوي والأدبي عند (صاحبة الحرير الأخضر) - رضي الله عنها وأرضاها -.

وليس خافياً ما في شهادة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وهو ذو البلاغة والبيان، وأحد كتَّاب الوحي، من الدلالة القوية على كون بلاغةِ عائشة وفصاحتها من الطراز الممتاز الذي يستوقف ويستثير الاهتمام.

فهو ينفي أن يكون قد سمع أبلغَ من عائشة، ويستثني من ذلك الرسول ﷺ الذي هو أفصح العرب بلا منازع.

وشهادة الأحنف بن قيس وهو من أفصح العرب، وأبلغهم لا تقلُّ عن شهادة معاوية، فهو يحدِّد أسماء الخلفاء المعروفين بالفصاحة والبيان وقد سمع منهم وروى عنهم، وهو على معرفةٍ تامَّةٍ بقدراتهم البيانية، ولكنه يؤكد - مع ذلك - أن عائشة - رضي الله عنها - أفصح منهم لساناً، وأفخم لفظاً، وأحسن بياناً.

نعم إنه (أدب النُّبوَّة)، وكفى، وهذا ما أكَّده الشَّعبي - يرحمه الله - حينما تساءل - لتأكيد علم عائشة وفقهها، قائلاً: «ما ظنكم بأدب النبوة»؟.

لغة عائشة
- رضي الله عنها -

دراية وعناية

التعامل مع اللغة العربية الفصحى يحتاج إلى دراية بها، وشعور بأهميتها، وذوقٍ رفيع يمكِّن صاحبه من معرفة إيحاءاتها ومراميها، وظِلال كلماتها، وأبعاد أساليبها، وعمق معانيها.

ولا يتأتَّى ذلك إلا لأصحاب المواهب الممتازة التي تمكِّن أصحابها من الإبحار في محيط اللغة الكبير.

وهنا يتَّضح للمتابع الفرق بين الأدباء والعلماء في طريقة أدائهم اللغوية، وتركيبهم الأسلوبي، واختيارهم للعبارات الأنسب في الموضوع الذي يطرحونه.

وحَسْبُك بصاحبة الحرير الأخضر في هذا الجانب قدرة وإبداعاً.

واللغة عندها - رضي الله عنها - مرتبطة بالقرآن الكريم ارتباطاً قوياً، فهو الذي هذَّبها وارتقى بها، وصاغها صياغةً معجزة، وأصبح مرجعها الأوَّل، وحصنها الحصين، وجعل لها رونقاً وبهاءً زادت به جَوْدةً وجمالاً.

ولذلك عُنيت - صاحبة الحرير الأخضر - بالمفردة القرآنية

عناية كبيرة، وحرصت على استخدامها، وحثَّتْ على ذلك، ونبَّهتْ في بعض المواقف إليه.

أخرج الإمام أحمد في مسنده حديثاً عن يزيد بن بابنوس قال فيه: «ذهبت أنا وصاحب لي إلى عائشة، فاستأذنَّا عليها، فألْقَتْ لنا وسادةً وجذبت إليها الحجاب فقال صاحبي: يا أم المؤمنين، ما تقولين في العراك؟، قالت: وما العراك؟؛ وضربْتُ منكبَ صاحبي، فقالت: مَهْ آذيتَ أخاك، ثم قالت: ما العراك؟، المحيض؟، قولوا ما قال الله تعالى: "المحيض"»[1].

وكأني بأم المؤمنين تنبِّه السائل في الخبر السابق إلى مسألتين: أُولاهما، استخدام كلمة غير شائعة ولا معروفة عند معظم المسلمين وهي كلمة (العِراك) بمعنى المحيض، وثانيتهما، استخدام غير المفردة القرآنية وهي لا ترضى بذلك، وترى أنه تفريط غير مقبول في كنز اللغة العربية الفصحى الذي لا ينتهي ألا وهو (القرآن الكريم).

ولهذا قالت موجِّهة المتحدث: «قولوا ما قال الله تعالى».

(١) مسند الإمام أحمد: ٦/٢١٦.

توجيهٌ عائشيّ

ينقل الزركشي في كتابه الإجابة «أنَّ عائشة - رضي الله عنها - قالت لابن أبي السائب أشهر قاصٍّ بالمدينة»

ثلاثاً لتبايعَنِّي عليها أو لأُناجزنَّك، فقال: ما هنَّ؟. بل أنا أبايعكِ يا أم المؤمنين، قالت: اجتنب السَّجعَ من الدعاء، فإني عهدت رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون ذلك، وقُصَّ على الناس في كلِّ جمعةٍ مرَّةً، فإنْ أَبَيْتَ فاثنتين، فإنْ أَبَيْتَ فثلاثاً، ولا تُملَّ الناسَ هذا الكتابَ الكريم، ولا أُلْفَينَّكَ تأتي القومَ وهم في حديثٍ من حديثهم فتقطع عليهم حديثهم، ولكنْ اتركهم، فإنْ جرؤوك عليه وأمروك به فحدِّثهم»[1].

هذا توجيهٌ عائشيٌّ عظيم لرجلٍ يتَصدَّى لوعظ الناس وإرشادهم، فيه من الوعي اللُّغوي ما يدلُّ على طول باع صاحبة الحرير الأخضر في العلم باللغة ومزايا أساليبها، وفيه من الفقه ما يدلُّ على رسوخ قدمها في العلم بكتاب الله وسنة الرسول ﷺ.

وفي هذا التوجيه العائشيّ دليلٌ كبير على حسن انتقاء الجمل والكلمات الملائمة للموضوع وللموقف، وهو ما يحقِّق بجلاءٍ ما يُعرَف عند البلاغيين بـ «مراعاة مقتضى الحال».

---

(١) الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة للزركشي.

يروي بن الجوزي في كتابه صفة الصفوة أنَّ معاوية بن أبي سفيان سأل زياد بن أبيه: أي الناس أبلغ؟، قال: إذا عَزَمْتَ عليَّ فعائشة، فقال معاوية: ما فتحتُ باباً قط تريد أنْ تُغلقه إلا أغلقتَه، ولا أغلقت باباً قط تريد أن تفتحه إلا فَتَحْتَه»[1].

هذا ما يقوله (زياد)، ذو المكانة العالية في البلاغة والبيان، وصاحب الخطبة البتراء التي تُصنَّف في مقدمة خطب العرب، وهي شهادة يؤيدها - أيضاً - معاوية رضي الله عنه، وبذلك نرى ما يكاد يكون إجماعاً من أهل البلاغة والفصاحة على هذه المنزلة الكبيرة لصاحبة الحرير الأخضر - في مجالات اللغة العربية المختلفة.

ولا شك أن هذه المقدرة اللغوية والبيانية من العوامل المهمة التي جعلت عائشة قادرة على النقد والتوجيه والاستدراك في كثير من الآراء والأحكام الفقهية وغيرها على أصحاب رسول الله ﷺ، وجعلت الصحابة يعودون إلى رأيها في مسائل كثيرة كما سنبين فيما بعد - إن شاء الله-.

(١) صفة الصفوة:

الدِّقّة
في التعبير اللّغوي

الدِّقة في التعبير اللغوي

القرآن الكريم هو المدرسة الأولى في (دقَّة التعبير اللغوي) فهو الذي حقَّق للغتنا العربية رقيَّها وشموخَها وزادها قدرةً على التماسُكِ ونفث فيها طاقات التعبير اللغوي الراقي التي لا حدود لها، نعم لقد كانت اللغة العربية الفصحى على قدرٍ كبير من النُّضج والقوَّة والتدفُّق عند العرب قبل الإسلام، واستحقَّ أهلُها أن يُوصفوا بالبلاغة والبيان، والبراعة في المناظرة والمنافرة ومقارعة الكلمة بالكلمة، وأن يوصفوا بأنهم (قوم خَصِمُون)، أي شديدو الخصومة، وهي صيغة مبالغة تدل على قدرة المخاصم على التصرُّفِ في فنون القول والتمرُّس في صياغة العباراتِ وتصريف الكلمات وصناعة الحجج التي تدعم رأيه.

نعم كانت اللغة العربية وأهلها على هذا المستوى من البيان في الجاهلية، ومع ذلك كلِّه فإنَّ القرآن هو المدرسة البيانية الأولى في «دقّة التعبير اللُّغوي» - كما ذكرنا - وذلك سرٌّ من أسرار إعجازه لأرباب الفصاحة والبيان، وسببٌ من أسباب اندهاشهم به، وإعجابهم ببيانه إعجاباً أصابهم بالذهول والاضطراب والاستسلام الذي ظهر عليهم جليّاً بالرغم من محاولتهم الجادة إخفاءَه عن الناس حتى لا يوصفوا بالعجز أو الانصياع لما جاء به محمد، ولا

بأس أن نقرأ معاً إحدى القصص التي رُويت لنا لتأكيد هذا الذي نقول:

يقول ابن هشام في سيرته: «ثم إنَّ الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفرٌ من قريش، وكان ذا سنٍّ فيهم، وقد حضر الموسمَ فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإنَّ وفود العرب ستقدمُ عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمِعُوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذِّب بعضُكم بعضاً، ويردَّ قولُكم بعضَه، قالوا: فأنتَ يا أبا عبد شمس فقُلْ وأقِمْ لنا رأياً نقول به، قال: بل أنتم فقولوا أسمَعْ.

قالوا: نقول: كاهن، قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكُهَّان فما هو بزَمْزَمَةِ الكاهن ولا سجعه، قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنونَ وعرفناه، فما هو بخَنْقِه، ولا تخالجه، ولا وَسْوَسته، قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعِر، لقد عرفنا الشعر كلَّه زجزَه وهزجَه وقريضَه ومقبوضَه ومبسوطَه فما هو بالشعر، قالوا: فنول: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السُّحَّار وسحرَهم، فما هو بنفثهم ولا عَقْدهم.

قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟

قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإنَّ أصلَه لَعذَق، وإنَّ فَرْعَه لجَناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلاّ عُرف أنَّه باطل، وإنَّ أقرب القول

فيه لأنْ تقولوا: ساحر، جاء بقولٍ هو سحرٌ يفرِّق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته»[1]

هذه القصة التي نقلها ابن هشام دليلٌ واضحٌ على ذلك الإدهاش الكبير الذي أحدثه القرآن الكريم في عقول فصحاء العرب...

إنَّ الحيرة الكبيرة التي وقع فيها القوم دليلٌ على أنهم وقفوا أمام نصٍ إعجازي كبير، جعلهم يضطربون في تحديد الوصف الذي يوافق أهواءَهم ويحقِّق لهم ما تريده تلك الأهواء من صَرْف أهل الموسم عن هذا القرآن الكريم، نعم إنهم في حالة من الحيرة والاضطراب لا يحسدون عليها.

ولسنا هنا بصدد الاسترسال في إبراز ملامح تلك الحيرة فإن شرح ذلك يطول.

المهم أن القرآن الكريم هو مدرسة الدقة في التعبير اللغوي الأولى والباقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولا شك أنَّ كلَّ صاحب قلبٍ ذكي وذهنٍ حاضر وموهبة قوية، ولسان فصيح يؤمن بهذا القرآن الكريم ويتتلمذ على مدرسته

(١) السيرة النبوية لابن هشام ص: ٢٧٠، الناشر: مؤسسة علوم القرآن.

اللغوية المعجزة سيكون على مستوىً رفيع من القدرة البيانية، والفصاحة، ودقة التعبير اللغوي، وهذا ما تحقَّق بكل مقاييسه الإبداعية لصاحبة الحرير الأخضر عائشة رضي الله عنها.

إنها تضع العبارة المناسبة في المكان المناسب فتؤدي الغرض المطلوب مباشرةً، وتحقِّق ما يستدعيه الفنُّ البلاغي من مراعاة مقتضى الحال التي تُعد من أهم أسباب وصول الكلمة إلى بُؤرة التأثير في نفس قارئها أو المستمع إليها.

إنه الفنُّ اللغوي العربي الفصيح الذي يُحرم من مذاقه المتميِّز وجماله ولذَّته كثيرٌ من العرب في زماننا هذا.

بين الرضا والغضب

عن عائشة - رضي الله عنها-، قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «إني لأعرف غضبَك ورضاك إذا كنت راضية، قالت: وكيف ذلك يا رسول الله، قال: «إذا كنتِ راضيةً قلتِ: بلى وربِّ محمد، وإذا كنتِ ساخطةً قلتِ: لا وربِّ إبراهيم، قالت: أجل ما أهاجر إلا اسمك»[1].

هنا تبرز اللغة الراقية، ويتجلَّى التعبير اللغوي الدقيق، والاختيار المحدَّد للعبارة الملائمة لحالة المتكلِّم، والموصِّلة للرسالة النفسية إلى المستمع.

هذا الحديث الذي ترويه لنا صاحبة الحرير الأخضر يؤكد لنا أهمية الدقة في اختيار العبارة لبناء أسلوب لغوي متين.

ورسول الله ﷺ يوضِّح لأحبِّ زوجاته إليه أنه يفهم الرسالة غير المباشرة التي تبعث بها إليه في حياتهم الأسرية الكريمة.

«بلى وربِّ محمد».. هنا جملةٌ تعبِّر عن الرِّضا الذي يملأ نفس أم المؤمنين، ولا شك أنها تستجمع السعادة من أطرافها وهي تذكر

(١) مسند عائشة لأبي بكر السجستاني، تحقيق عبدالغفور عبدالحق حسين، مكتبة دار الأقصى - الكويت ١٤٠٥هـ ص: ٧٠.

اسم الزوج الحبيب، ويالها من سعادةٍ لا حدود لَها بنطق اسم الحبيب الذي لا نظير له في البشر؛ لأنه المصطفى المختار أفضل الناس أجمعين.

هنا تعبيرٌ انتقائي عن حالة الرِّضا، فماذا يحدث في حالة السخط.

«لا وربِّ إبراهيم».. هنا يفهم الزَّوج الحبيب عليه الصلاة والسلام أنَّ زوجته الحبيبة ساخطة؛ لأن العبارة أخذت شكلاً آخر، فهناك (بلى) وهنا (لا)، وهناك (محمد عليه الصلاة والسلام) وهنا (إبراهيم عليه السلام)، القسم بالله سبحانه وتعالى واحد، ولكنَّ اختلاف الاسم هو الذي يحدِّد حالة قلب عائشة بين الرِّضا والسخط.

والحديث يعطينا دليلاً آخر على دقة التعبير اللغوي عند عائشة رضي الله عنها، فهي بعد أن استمعت إلى ما قال رسول الله ﷺ لها، قالت له مباشرة: أجل ما أهاجرُ إلا اسمك.

ما أروعها من عبارة وما أدقَّه من تعبير جرى على لسان أم المؤمنين رضي الله عنها.

«أجل» تصديقٌ لما قاله الرسول ﷺ وتأكيد لما فهمه من اختلاف العبارة بين الرِّضا والسخط.

و«ما أهاجر إلا اسمك» تأكيد للحب العظيم الذي تحمله في قلبها لرسول الله ﷺ؛ فهي لا تذكر اسمه في حالة سخطها حينما تقسم على شيء، ولكنّ حبَّه ومكانته في نفسها راسخة لا تتغيَّر أبداً، فهي في هذه الحالة لا تهاجر إلا الاسم، وهي بهذه العبارة الدقيقة تؤكد لرسول الله ﷺ حبَّها الكبير له.

ما أروعها من حياة زوجية كريمة.

صواحب عائشة

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أَلْعَبُ في بيت رسول الله ﷺ بالبنات فيجئن صواحبي فينقمعْن من رسول الله ﷺ فيخرج فيدخلن عليَّ»[1].

هذا حديث يضيف إلى شواهدنا شاهداً واضحاً على دقَّة التعبير عند عائشة رضي الله عنها، فهي تروي لنا قصتها مع صواحبها من البنات الصغيرات اللاتي كنَّ في مثل عمرها، حيث كنَّ يأتين إليها وهي في بيت النبوة يلعَبْنَ معها. بالبنات المصنوعات من الأقمشة، أي (العرائس) التي يحلو للفتيات الصغيرات اللعب بها ثم تصور لنا بعبارة واحدة صورة ذلك المشهد اللطيف، الذي نتخيل فيه صواحبها وهنَّ يركضن مختفيات عن الرسول ﷺ عندما يجيء وهنَّ عند عائشة.

إنها عبارة «يَنْقَمِعْنَ» بإيحاءاتها البلاغية واللغوية التي جعلتها العبارة المرشَّحة (بيانياً) للاستخدام في هذا المقام.

تقول معاجم اللغة: القَمْع: الدخول فراراً وهَرَباً، وقَمعَ في بيته وانقمع: دخله مستخفياً.

---

(١) مسند عائشة ص: ٥٢.

وعلى هذه المعاني يكون معنى «فينقمعن» الواردة في الحديث: يتغيَّبْن عن نظر الرسول ﷺ عندما يجيء، ويدخلن هاربات في بيتٍ، أو من وراء ستر، حتى إذا ذهب الرسول عليه الصلاة والسلام دخلن على عائشة لمواصلة اللعب معها بالبنات.

والقِمَع: هو الغطاء الذي على رأس الثمرة حيث تختفي فيه الثمرة.

إنَّ دِقَّةَ التعبير عند عائشة - خاصة في مثل عمرها - تلفت النظر، وتدلُّ على أثر البيئة والأسرة والتربية في نفس الإنسان، فالعبارات التي يمكن أن تستخدم للتعبير عن اختفاء صواحب عائشة كثيرة، ولكن صاحبة الحرير الأخضر - رضي الله عنها - تصوِّر بكلماتها ما تريد، ولا تكتفي من العبارة بمدلولها اللغوي المجرَّد؛ ولهذا كانت كلمة «ينقمعن» أقرب الكلمات إلى لسانها الفصيح.

ولا شك أنَّ هنالك ميزةً كبرى تضفي على أحاديث عائشة وكلماتها قيمة خاصة إلى جانب قيمتها البلاغية، ألا وهي الأحكام الشرعية التي تستفاد من أحاديثها في حياتها مع أفضل الخلق عليه الصلاة والسلام.

ففي هذا الحديث تحدثنا عن (البنات المصنوعات من الأقمشة) للعب، فتضع بين أيدينا حكماً شرعياً بالإباحة لما كان من

هذا النوع من ألعاب الأطفال، وفي الحديث إشارة إلى الحياة الاجتماعية القائمة على التآلف والمحبة من خلال وجود صواحب عائشة عندها في بيت النبوة، وفي الحديث إشارة إلى الحياء الذي ينشأ مع الفتاة المسلمة منذ طفولتها حيث يدفعهن حياؤهن وهيبة رسول الله ﷺ في صدورهن إلى الانقماع عنه حتى يخرج.

وهكذا نشعر أن كلمات (صاحبة الحرير الأخضر) تشبه الحقول الخصبة ذات الأشجار المختلفة والأزهار المتنوعة.

الكَلْمُ المتحجِّر

قالت عائشة - رضي الله عنها -: تحجَّر كَلْمُ سعدِ بن معاذ الأنصاري بالنَّزفَ، فدعا سعدٌ فقال: اللهم تعلم أنه ليس أحدٌ أحبَّ إليَّ من أنْ أجاهده، من قومٍ كذَّبوا رسولك وآذوه وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنْ قد وضَعْتَ الحربَ فيما بيننا وبينهم، فإنْ كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها أجاهدهم فيك، وإنْ كنت قد وضعت الحرب فيما بيننا وبينهم، فافجرُه بها، واجعل منيّتي فيها.

قالت: فانفجر من ليله فمازال يسيل حتى مات، فذلك حين يقول الشاعر:

ألا يا سعدُ سَعْدَ بني معاذٍ

فما فعلتْ قريظة والنَّضير

لعمرك إنَّ سعدَ بني معاذٍ

غداةَ تحمَّلوا لهو الصَّبور

إلى آخر الأبيات.[1]

هذا خبرمن أخبار كثيرة نقلتها إلينا عائشة رضي الله عنها بأفصح عبارة، وأنْصع بيان، وأجود روايةٍ وحفظ.

وما دمنا في باب (دقة التعبير) فإن الذي يعنينا من عبارات هذا الخبر هو جملة: «تحجرَّ كَلْمُ سعد بن معاذ الأنصاري بالنَّزْف».

فالتعبير عن جمود الجرح بجمود الدَّم النازف عليه بالفعل (تحجَّر) دقيق في تصوير الحالة، فجرح سعدٍ رضي الله عنه الذي أصيب به في غزوة الخندق كان جرحاً بليغاً، وقد صورت لنا عائشة درع سعدٍ في خبرٍ آخر تصويراً يدل على أنها كانت دِرْعاً غير سابغةٍ عليه، فهي تخبرنا أنها كانت مع نساء المسلمين في الحصن يوم الأحزاب، وكنَّ يُشرفن على الطريق، وكانت مع أم سعد بن معاذ، فبينا هما تتحدَّثان إذْ رأتا سعداً يسير نحو الخندق بعد أن سبقه القوم، وعليه درع غير سابغة قد ظهرت منها جوانب من جسده، فقالت عائشة لأمه: إن درع ابنك سعداً غير سابغة، ولم تلتفت الأم إلى ما قالت عائشة، بل صاحت بابنها الذي كان يسير وهو يردِّد:

لبُثْ قليلاً يشهد الهيجا جمل

لا بأس بالموت إذا حان الأجلْ

قائلة له: لقد تأخرت يا سعد عن القوم كثيراً.

وحدث ما كان يُخشى، حيث انطلق سَهْمٌ أصاب (أَكْحَلَ) سعدٍ فجرحه جرحاً عميقاً.

وها نحن الآن نرى كيف تصوِّر لنا عائشة رضي الله عنها ذلك

الجرح الذي توقَّف نزفه، وتستخدم عبارة «تحجَّر» لأنها أدقُّ العبارات التي تصف تلك الحالة.

فالجرح قد اجتمع والتأم وقرب بعضه من بعض، وجمد واشتدَّ، وكلمة (تحجَّر) تدل على هذه المعاني جميعها، فمن معانيها في لغة العرب جَمْعُ الأشياء إلى بعضها، ومن معانيها، حَجْزُ الأشياء ومنعُها من التجاوز، ومن ذلك «الحَجْر على المال» أي منع صرفه لسبب قضائي، ومن معانيها الشدَّة والصلابة.

وهذه المعاني كلُّها مقصودة في الخبر الذي روته عائشة عن سعد بن معاذٍ رضي الله عنهما، وهو خبر مهم سنتناول تفاصيله فيما بعد.

الدخول في السِّن

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يصلِّي صلاة الليل قائماً، فلمَّا دخل في السِّنّ، جعل يجلس حتى إذا بقي من السورة ثلاثون أو أربعون قام فقرأها ثم سجد.[1]

إنَّ مواطن الإبداع في اللُّغة، والدِّقة في العبارة، لا تستوقف إلا من يعرف قيمة الاستخدام الأمثل والأرقى للغة العربية العظيمة.

وهذه المعرفة بقيمة اللغة هي التي تيسِّر استخدام اللغة عند المتحدثين بها، وتجعلهم عاشقين لها عِشْقاً قد يفوق كلَّ عِشْقٍ سواه في حياة الإنسان.

وهذه المعرفة - أيضاً - هي التي يتفاضل بها المتحدثون والكتَّاب، ويسبق بعضهم بعضاً في ميادين الفصاحة والبيان.

ومما يميِّز هذا الاستخدام الأمثل للغة أنه يأتي عَفْوَ الخاطر لا تكلُّف فيه، ولا مجال فيه للصَّنعة التي يظهر أثرها واضحاً في أساليب أصحابها.

«فلمَّا دخل في السِّنِّ».

---

(١) مسند عائشة: ٨٩.

هنا دخولٌ في شيء معنوي، ألا وهو «تقدُّم العمر وكبر السِّنّ»، والعبارة التي تتبادر إلى الذهن في الحالات المعتادة هي عبارة «كبر سنه» وما شابهها، لكن صاحبة الحرير الأخضر تستخدم اللغة بدقَّة تلفت النظر، وبنصاعة بيانٍ تدلُّ على أنها قد «دخلت في عالم اللغة العربية الجميل» دخولاً عميقاً، ومن هنا جاء تعبيرها مصبوغاً بصبغة البلاغة والتصوير الفني البديع.

«فلمَّا دخل في السِّنّ»، وأصبح - عليه الصلام والسلام - في مرحلةٍ من العمر تختلف عن مرحلة الشباب وقوته، والكهولة وقدرتها جعل يجلس في صلاته في الليل ويقوم قبل الركوع ليكمل صلاته.

لنا أن نقف عند جملة «دخل في السِّنّ» مستمتعين بما فيها من إيحاءات بلاغية جميلة، ومن دقة في التعبير عن حالة الإنسان حينما يخرج من قوَّة جسده إلى ضعفه.

ولهذه العبارة إيحاءٌ آخر، لا نعلم إنْ كانت صاحبة الحرير الأخضر قد قصدته أم لا.

ألا وهو رفع مقام النبي ﷺ عن الحديث عنه بالضعف الذي تستدعيه عبارات الشيخوخة، وكبر السن، وتقدُّم العمر، واستخدام عبارة تحقِّق المعنى المراد بصورة صافية سليمة من غبش الإيحاءات التي لا تستحبُّ في مثل هذا المقام.

الاستثناء الجميل

قالت عائشة - رضي الله عنها -: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط - إلا أن يجاهد في سبيل الله -، ولا ضرب خادماً ولا امرأة.(١).

هنا خبر عن رحمة الرسول ﷺ بالناس، وعطفه عليهم، وحسن خُلُقه معهم، خبرٌ عن ذلك التعامل النبوي الكريم مع الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم، وعلى مراتب قربهم وبعدهم عند رسول الله ﷺ.

وتأتي دقة التعبير في هذا الخبر في الاستثناء والجملة المعترضة، حيث نفت عائشة رضي الله عنها نفياً واضحاً الضرب للناس أو للدواب عن أفضل الخلق عليه الصلاة والسلام، ولكنها استثنت منذ بداية حديثها ما يستحق الاستثناء بقولها - إلا أن يجاهد في سبيل الله - لأن هذا الاستثناء يحقق مبدأ الصدق الذي تنطلق منه عائشة ورواة الحديث من الصحابة رضي الله عنهم، ويزيل شبهة التعميم على كل شيء في هذه المسألة، فقد ثبت أن الرسول شارك في الغزوات مجاهداً مع أصحابه في سبيل الله.

---

(١) مسند عائشة ص: ٨٨.

ومثل هذا الاستثناء في هذا المقام لا يجري إلا على لسان من يقدِّر للكلمة قدرها، ويعرف أبعاد الأحاديث وآثارها، ويحرص على أن تكتمل في أحاديثه جوانب البيان الناصع، والكلام الصادق الذي لا يصطدم مع الحقيقة والواقع.

«ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً» تعميم صحيح يناسبه لفظ «شيئاً» الذي يشمل كل ذي روح من إنسانٍ أو حيوان، كما يشمل جميع المستويات والمراتب دون تفريق بينها.

ثم يأتي بعد ذلك التخصيص - بعد التعميم - للأهمية القصوى في هذا المجال حيث تقول:

«ولا ضرب خادماً ولا امرأة».

أتدرون لماذا كان هذا التخصيص؟

لأن الناس قد اعتادوا على ضرب الخادم إذا أخطأ أو المرأة إذا خالفتْ؛ اعتادوا على ذلك؛ لأنهم يرون أن من حقهم أن يفعلوه مع من يقع تحت ولايتهم ورعايتهم، وفي تخصيص هذا الأمر هنا ما يؤكد أهمية الاهتمام بالخادم والمرأة اقتداءً برسول الله ﷺ.

أرأيتم كيف تدِقُّ العبارة عند أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -، وكيف يشرق الأسلوب في أحاديثها، وتبرز الفكرة في أخبارها بطريقة تستحق التقدير والإعجاب؟

إنها وقفات قصيرات أردت أن نقف - من خلالها - على الدقة في التعبير عند أم المؤمنين (صاحبة الحرير الأخضر)، عائشة رضي الله تعالى عنها، وإلا فإن الشواهد والأمثلة على ذلك موجودة في كل نصٍّ روي لنا عن تلميذة البيان المشرق في مدرسة النبوة التي أدارها ويتولَّى التعليم فيها محمد بن عبدالله ﷺ.

الدِّقّة
في الوصف

الدقة في الوصف

حينما يتمكن الإنسان من لغته، ويحسن التعامل مع إبداعها وجمالها، وثروتها الكبيرة في المفردات والتراكيب والأساليب، ويعرف مواطن بلاغتها وبيانها، فإنه - بذلك - يصبح قادراً على التصرُّف في فنون القول، مبدعاً في استخدام الأساليب البديعة، والصور البلاغية، والإيحاءات البيانية التي تمتلئ بها ساحة (اللغة العربية)، وتصبح رَهْن إشارته وطَوْع بنانه، يتصرَّف في فنونها أحسن تصرُّف، ويصوغ أقواله بأساليبها ومفرداتها وتراكيبها أحسن صياغة.

اللغة «كنزٌ كبير» إذا استطاع الإنسان أن يعرف طريقه، أجاد وأبدع، وأثَّر في سامعيه وأقنع.

اللغة «ثروة عظيمة» إذا اجتهد الإنسان في اكتسابها وجد طريقه إلى النجاح في علاقته بالناس ممهَّداً، وبابه الذي يفضي إلى واحة الإبداع مفتوحاً، وجسر التأثير في المخاطبين ممدوداً.

الفرق كبير بين وصف المبدع لموقفٍ من المواقف، ووصف غير المبدع، وهنا سر التفاضل بين البشر في بلاغتهم وبيانهم وصاحبة الحرير الأخضر خير مثلٍ على أهمية التمكُّن من اللغة وأساليبها وتراكيبها ومفرداتها.

إنك لا تُخطئ مكان الإبداع والإجـــادة في أي قـــولٍ رُوي عن عـائشـة رضي الله عنهـا، حتى إنَّها لجـديرة بأن تكون في مـقـدِّمـة المبدعين في مجال الكلمة في أدبنا العربي الإسلامي، وجديرةٌ بأن يكون لأقـوالها وأحـاديثـها وأخـبارها مكانُ الصَّدارة فـيمـا نقـدِّمـه لأجـيـالنـا من مناهـج اللغـة والأدب التي تهـدف الى رفع مـسـتـواهم اللغوي، وإلى ربطهم بإبداعات لغة القرآن وكنوزها.

عـائشـة - رضي الله عنهـا - تقف من هـذا المجـال في قـمّـتـه السامقة.

وئيد الأرض

قالت عائشة: خرجتُ يوم الخندق أقفو بالناس، فسمعتُ وئيد الأرض ورائي، فإذا أنا بسعد بن معاذ رضي الله عنه ومعه ابن أخيه الحارث ابن أوس، يحمل مِجَنَّه، فجلستُ إلى الأرض، فمرَّ سعدٌ وعليه درع قد خرجتْ منه أطرافه، فأنا أتخوَّف على أطراف سعد - وكان سعد رضي الله عنه من أعظم الناس وأطولهم - فمرَّ وهو يرتجز:

لبِّثْ قليلاً يَشهدِ الهيجا جمل ما أحسن الموتَ إذا حان الأجلْ

فقمتُ فاقتحمت حديقة، فإذا فيها نفرٌ من المسلمين وإذا فيها عمر بن الخطاب، وفيه رجل عليه نشيعة - تعني المِغْفَرَ -، فقال عمر: ما جاء بك؟ لعمري - والله - إنك لجريئة، وما يؤمّنك أن يكون بلاء أو يكون تَحوُّز، فمازال يلومني حتى تمنَّيت أن الأرض انشقَّت بي ساعتئذٍ فدخلت فيها، فرفع الرجل النَّشيعة عن وجهه، فإذا هو طلحة بن عبيدالله.

فقال: يا عمر - ويحَك - إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التحوز أو الفرار إلا إلى الله تعالى؟! قالت: ويرمي سعداً رجلٌ من قريش يقال له: ابن العَرِقَة بسهم، وقال له: خذها وأنا ابن العَرِقة، فأصاب أكحلَه فقطعه، فدعا اللهَ سعدٌ فقال: اللهم لا تمتني حتى تُقِرَّ عيني من قريظة، قالت: وكانوا حلفاءَه ومواليهُ في الجاهلية.

قالت: فَرَقَأَ كَلْمهُ، وبعث الله الريح على المشركين وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً، فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة ولحق عُيَيْنَة بن بدر ومن معه بنجد، ورجعت بنو قريظة فتحصَّنوا في صياصيهم، ورجع الرسول ﷺ إلى المدينة، وأمر بقبَّةٍ من (أدَم) فضُرِبتْ على سعدٍ في المسجد، قالت: فجاءه جبريل عليه السلام وإنَّ على ثناياه لنَقْع الغبار فقال: أوَقد وضعتَ السلاح؟ لا، والله ما وضعت الملائكةُ بعدُ السلاح، اخرج إلى بني قريظة فقاتلهم.

قالت: فلبس رسول الله ﷺ لأمتَه وأذَّنَ في الناس بالرحيل أنْ يخرجوا، فخرج رسول الله ﷺ فمرَّ على بني غَنْم وهم جيران المسجد حوله، فقال: من مرَّ بكم؟، قالوا: مرَّ بنا دِحْيَةُ الكلبي - وكان دحية الكلبي تُشْبِهُ لحِيَتُه وسِنُّه ووجهُه جبريلَ - عليه السلام - فأتاهم الرسول ﷺ فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة.

فلما اشتد حصارهم، واشتدَّ البلاءُ قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ فاستشاروا أبا لبابة بن عبدالمنذر فأشار إليهم أنه الذبح.

قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: انزلوا على حكم سعد بن معاذ، فنزلوا، وبعث الرسول ﷺ إلى سعد بن معاذ فأُتي به على حمار عليه إكافٌ من ليفٍ قد حمل عليه، وحَفَّ به قومُه، فقالوا: يا أبا عمرو، حلفاؤك، ومواليك وأهل النكاية ومن قد عَلِمْتَ.

قالت: ولا يَرجع إليهم شيئاً، ولا يلتفت إليهم. حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال: قد آن لي ألاّ أبالي في الله لومَّة لائم. قال أبو سعيد: فلما طلع قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم فأَنْزِلوه»، فقال عمر: سيدنا الله.. قال: «أنزلوه»، فأنزلوه، قال رسول الله ﷺ: احكم فيهم، قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تُقْتَل مُقاتلتهم، وتُسبى ذراريهم، وتقسَّم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله: ثم دعا سعدٌ فقال: اللهم إن كنت أبقيت على نبيِّك من حرب قريشٍ شيئاً فأبقني لها، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك، قال: فانفجر كَلْمُه، وكان قد برئ منه إلا مثل الخُرْص، ورجع إلى قبته التي ضرب عليه رسول الله ﷺ قالت عائشة: فحضره رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمر، قالت: فوالذي نفس محمدٍ بيده إني لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر، وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾.

قال علقمة: فقلت: أي أُمَّه، فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟

قالت: كانت عينه لا تدمع على أحد، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته[1].

هذا خبر كامل، لقصة كاملة، آثرتُ أن أنقله هنا كاملاً، لنتمكن

(١) تفسير ابن كثير، جـ: ٣ص: ٥٨٩، تفسير آيتي ٢٦، ٢٧ من الأحزاب.

من التجوُّل في ساحته البيانية بحرية كاملة، نستطيع أن نعرف - من خلالها - سمات ومعالم اللغة الراقية التي تتحدث بها (صاحبة الحرير الأخضر) - رضي الله عنها - تلك اللغة التي جعلتها قادرة على الوصف الدقيق.

فهيَّا بنا إلى جولةٍ أشعر أنها ستحقق لنا من المتعة ما سوف يسعدنا ويطربنا.

دوحةٌ بلاغيَّةٌ

في الخبر السابق تبرز لنا (بلاغة لغة القرآن) كما تبرز الشمس في يوم لا تشتكي أجواؤه من غيم، ولا غبار.

«سمعت وئيد الأرض»: هكذا تختار (صاحبة الحرير الأخضر) كلماتها؛ لأنها تعرف معاني ما تختار بدقةٍ ودراية، فالوئيد كما ورد في معاجم اللغة، الصوت الشديد، وهو واحد من معاني هذه الكلمة، وهو المعنى المقصود في كلام (عائشة) رضي الله عنها. إنها صورة بلاغية بديعة، فهي لم تقلْ: سمعت وقع خطواتٍ ورائي، أو غيرها من العبارات المعتادة، كلا، إنه صوت وئيد الأرض التي تهتز تحت قدمي بطلٍ من أبطال الإسلام كان متجهاً مع ابن أخيه إلى الخندق حيث يرابط الرسول ﷺ مع أصحابه في مواجهة الأحزاب.

ليس هنالك كلمة دقيقة تصوِّر مشيَ الفارس إلى ميدان المعركة مشياً شديداً سريعاً مثل كلمة «وئيد»، فإذا أضيفت الكلمة إلى «الأرض» فقد أصبحت صورة بيانية راقية، واستعارة جميلة ماتعة.

وفي هذا التعبير العائشيّ براعة استهلال للخبر، تلفت النظر وتستثير الاهتمام، وتقدح في ذهن المستمع شرارة خيالٍ واسع ترسم

صورة متكاملة لشخصية ذلك الذي يمشي مشياً يجعل للأرض من تحته وئيداً.

ولا تقف (صاحبة الحرير الأخضر) عند هذا الحد من جمال التعبير، ودقة التصوير، بل إنها توغل في استكمال رسم ملامح الصورة فتصف سعد بن معاذ بعظم الجسم وطول القامة، حتى إن أطرافه قد أعجزت درعه الصغير فما استطاع أن يغطِّيها، وهذا الوصف لا يأتي من باب فضول الكلام وزيادته دون فائدة، كلاَّ، فإنه وصف مهمٌّ للربط بين أجزاء الخبر ربطاً مثيراً مشوِّقاً، فهي تقول بعد وصفها لقصر درع سعد: «فأنا أتخوَّف على أطراف سعد» لماذا هذا التخوُّف؟

لأنه مرتبط بما حدث لسعدٍ بعد ذلك.

وهنالك مقدرة بيانية أخرى تتجلَّى في الخبر، تتمثَّل في رواية عائشة لبيت الشعر الذي كان يرتجز به سعد بن معاذ رضي الله عنه وهو يهز الأرض تحت قدميه: لبِّث قليلاً يشهد الهيجاجَمَل....

هل كانت عائشة تحفظ هذا البيت من قبل، أم أنها حفظته من إنشاد سعدٍ له، كلا الأمرين يؤكدان توقُّدَ ذهنها، وقوَّة حفظها وفهمها.

ثم تقول: «فجلست إلى الأرض» وقد فعلَتْ ذلك لكيلا يراها سعد، فهي تختبئ، ولذلك لم تكتف بقولها: «جلست» مع أنها تؤدي

معنى الجلوس، وإنما قالت جلست إلى الأرض، لأنها تؤدي معنى زائداً يفيد الالتصاق بالأرض للاختباء والاختفاء.

وهذه الدِّقة في استخدام العبارات والجمل لا تأتي إلا من دراية خاصة باللغة ومعانيها العميقة، وهذه الدراية هي التي جعلت عائشة تقول أيضاً: «فاقتحمت حديقة»؛ لأن الاقتحام يناسب حالة الذي يختبئ خوفاً من أن يراه أحد، فهو لا يمشي المشي المعتاد، ولا يسلك الطريق المعروف، وإنما يقتحم المكان من موقع غير معروف كي يتيح له الاختباء.

ولكن هذا الاقتحام لم يكن ذا جدوى؛ لأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رآها، وقد صورت الحالة بقولها: [فاقتحمتُ حديقةً، فإذا فيها نفر من المسلمين، وإذا فيها عمر بن الخطاب، وفيها رجل عليه نشيعة].

هنا تكتمل صورة الإبداع في وصف الحالة، حيث يظهر لنا عنصر المفاجأة واضحاً مؤثِّراً، فهي اقتحمت الحديقة ظناً منها أنها خالية، ولكنَّ الأمر كان على خلاف ما ظنت؛ ولهذا استخدمت أداة المفاجأة هنا: فإذا فيها، وإذا فيها، وبهذا يسمو التعبير البياني، وتتجلَّى صور البلاغة العائشية، وتزيد الأمر جمالاً بقولها: وفيها رجل عليه نشيعة.

ما هذه النَّشيعة يا صاحبة الحرير الأخضر، ولماذا تستخدمين هذه الكلمة بالذات؟

النَّشيعة هي: المِغْفَر، وهو مصنوع من الحديد يوضع على رأس الفارس وينحدر على الوجه والعُنُق، لحمايته من ضربات السيوف في المعركة.

أما النَّشيعة فهي من النَّاشع وهو: الناتئ البارز، والبروز صفة من أهم صفات المغفر.

ولعلَّ رؤية عائشة - رضي الله عنها - للمغفر بارزاً مانعاً من معرفة وجه صاحبه هي التي جعلتها تستخدم كلمة نَشيعة دون «مِغفر».

إنَّ بلاغتها وبيانها، وثروتها اللغوية هي التي تجعل عندها هذه القدرة الفائقة على الاختيار والانتقاء.

وحينما أرادت أن تصوِّر شدَّة لوم عمر رضي الله عنهما لها على جرأتها وحضورها إلى هذا المكان المفعم بالخطورة قالت: [تمنيت أن الأرض انشقَّت بي ساعتئذٍ فدخلت فيها]. إنها صورة حالة التأثر والندم على الحضور إلى هذا المكان.

وماذا بعد؟

لابد أن نرى الصورة كاملة الملامح، لا سيما وأنَّ صدى كلمة نَشِيعَة ما يزال في آذاننا، وشوقنا إلى معرفة صاحب النشيعة ما

يزال في نفوسنا، وهنا تقول عائشة: فرفع الرجل النشيعة عن وجهه فإذا هو طلحة بن عبيدالله حيث أخذ يدفع عن عائشة شدَّة تأنيب عمر بن الخطاب - رضي الله عنهم جميعاً -.

وماذا بعد؟

تكتمل حلقات الصورة، وترتبط أجزاؤها ببعضها، فهذا رجل من قريش يرمي سعداً بسهم قائلاً: خذها وأنا ابن العَرِقة، فيصيب السهم العرق الأكحل من ذراع سعد بن معاذ فيقطعه.

هنا نتذكر وصف عائشة لدرع سعد بالصغر، وحديثها عن خروج أطرافه، وتخوُّفها من ذلك.

لقد حدث ما كانت تتخوَّف منه، ولكن سعداً يسأل الله عز وجل ألاَّ يميته حتى يُقرَّ عينه من بني قريظة الذين نقضوا عهدهم مع المسلمين.

تقول صاحبة الحرير الأخضر: فَرَقأ كَلْمُه، أي سكن جرحه ووقف دمه.

ثم تمضي قافلة التصوير البياني في طريقها الجميل واصفة لنا هبوب الريح على الأحزاب وتفرُّقهم وهزيمتهم، وتلك القُبَّة التي أمر الرسول ﷺ أن تضرب في مسجده المبارك لتمريض سعد بن معاذ، وذلك النَّقْع من غبار المعركة الذي يبدو على ثنايا جبريل عليه

السلام، وذلك الحصار لبني قريظة في حصونهم، وذلك الحكم العادل من حليفهم سعد بن معاذ بقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم، وغنيمة أموالهم، وتلك الدعوة الأخرى من سعد أن يقبض الله روحه إن كان في علمه أن حرب قريش مع رسول الله عليه والصلاة والسلام قد انتهت، ثم تختم عائشة الخبر بتصويرها لحالة الحزن التي عاشها الرسول ﷺ وأصحابه على وفاة صاحب الدرع الصغير سعد بن معاذ.

وما أجمل قولها - رضي الله عنها - «فو الذي نفس محمدٍ بيده» هكذا تحلف يمينها بالله عز وجل ذاكرةً اسم حبيبها عليه الصلاة والسلام، ويالها من لَفْتةٍ عاطفية مؤثرة، فهي لم تقل «والذي نفسي بيده» وإنما قالت: والذي نفس محمد بيده، وكأنما أرادت أن توحي لنا بالحقيقة الراسخة التي تؤكد تفردها بحب رسول الله ﷺ الكبير، فهي جزء من نفسه الكريمة؛ لأنها أحب زوجاته إليه، وأقربهنَّ إلى قلبه الطاهر الكريم.

أرأيتم كيف تكون دوحة البلاغة جمالاً وخُضْرةً وظلالاً وارفةً، وثماراً شهيَّة؟

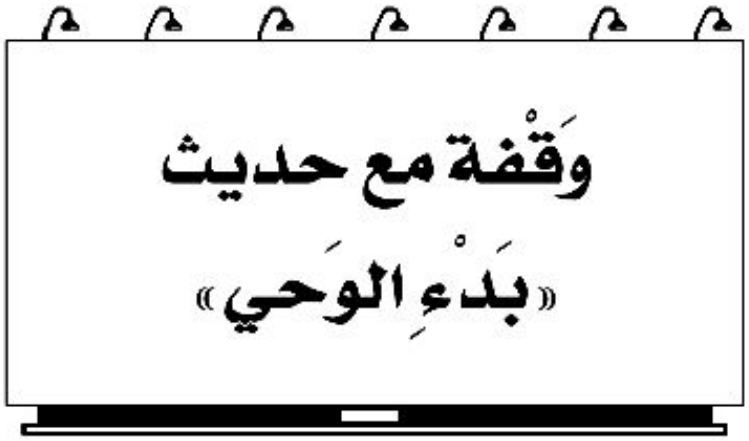
وَقْفة مع حديث
«بَدْءِ الوَحي»

وقفة مع حديث بَدْء الوحي

كانت (صاحبة الحرير الأخضر) مدركةً تماماً لمعنى علاقتها بمحمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام، ومقدِّرةً كلَّ التقدير لمعنى كونها زوجةً له، وحبيبةً تحتلُّ من نفسه المكانة التي يعرفها الناس.

إنها ذات عقلٍ راجح، وبصيرة ثاقبة، وعاطفةٍ جيَّاشة وإيمان بالله راسخ رسوخ أحُدٍ، وسَلْعٍ، ورضوى.

فهي تعلم علمَ اليقين أنَّها دخلت إلى المجد من أوسع أبوابه، وأصبحت من المسؤولية الزوجية، والعلمية والدعوية في الصميم، ولذلك أصبح موقعها في الأمة المسلمة مهماً، وصارت رسالتها في الدنيا كلها رسالة عظيمة.

هنا تكوَّنت شخصيَّتها العلمية الرزينة، ومكانتها الزوجية المكينة، وهنا برز اسمها - برغم صغر سنها - بين أهم رواة الحديث الشريف، وحازت قصب السبق في مجال الحديث عن بعض التفاصيل الخاصة بحياة رسول الله ﷺ المتعلِّقة بجبريل في مجال الوحي، وبأقرب أصحابه إليه في مجالات الدعوة، والعلاقات السياسية، وبزوجاته وأهله في مجال العلاقات الأسرية والاجتماعية.

إنَّ عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما استطاعت أن تكون الزوجة المتميِّزة لأفضل الخلق، وخاتم الأنبياء والمرسلين، الزوجة التي قال عنها زوجها الحبيب الذي لا ينطق عن الهوى: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

ومعنى ذلك أنَّ مستواها الرَّاقي في الفهم، والعلم، والبلاغة والبيان مناسب لموقعها المهم.

إنَّنا نَدْلُفُ إلى رياضٍ غنَّاء، وبساتينَ فَيْحاء، حينما تكون الراوية للحديث أو الخبر أو القصة هي (صاحبة الحرير الأخضر).

قالت عائشة: أوَّل مابُدئَ به الرسول ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رُؤيا إلا جاءتْ مثلَ فَلَق الصُّبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنَّث فيه - وهو التعبُّد - اللَّيالي ذَواتِ العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوَّدُ لذلك، ثم يرجع إلى خديجة ويتزوَّد لمثلها، حتى جاءه الحقُّ وهو في غار حراء، فجاءَه المَلَك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجَهْدَ ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلتُ: «ما أنا بقارئ»، فأخذني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجَهْدَ ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطَّني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾.

فرجع بها الرسول ﷺ يرجُفُ فؤادُه، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: «زمِّلوني، زمِّلوني». فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي» فقالت له خديجة: كلاَّ والله ما يحزنك الله أبداً، إنك لتصل الرَّحم، وتحمل الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدوم، وتَقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتتْ به ورقةَ بن نوفل بن أسد بن عبدالعُزَّى - ابنَ عم خديجة - وكان امرءاً قد تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتابَ العبرانيّ فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أنْ يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عَمي، فقالت له خديجة: يا ابن عَمٍّ اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبرَ ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نَزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَع، ليتني أكون حيَّاً إذْ يُخرجُك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أَوَ مُخرجيَّ هم»؟ قال: نعم، لم يأت رجل قَطُّ بمثل ما جئتَ به إلاَّ عُودِيَ، وإنْ يُدْرِكْني يومُك، أَنْصُرْكَ نصراً مؤزَّراً، ثم لم ينشَبْ ورقة أن تُوفِّي وفَتَر الوحي» - صحيح البخاري -.

ياله من وصف دقيق لهذا الحدث العظيم.

ماذا نقول عن هذا الأسلوب الرَّاقي الذي تشتدُّ أواصر كلماته وجمله، حتى لا تكاد كلمة تستغني عن صاحبتها، ولا تكاد جملة تطمئنُّ دون رفيقتها؟

إني أتذكَّر أمام هذا النص العلمي الشرعي الأدبي قول ربيعة ابن حُذارٍ الأسدي للشاعر الجاهلي عَلْقَمة بنَ عَبدة: شعرك يا عَلْقمة كَمزَادةٍ قد أُحكِمَ خَرْزُها، فليس يقطر منها شيء.

أتذكَّر هذا القول، وأنا أرى أنَّ أحاديث صاحبة الحرير الأخضر أَوْلى به لما فيها من الإحكام.

من أين جاء التميُّز في حديث عائشة عن بَدْءِ الوحي؟

جاء من جوانب متعددة:

١- من جانب أهمية الموضوع وعظمته، فهو موضوع بداية دينٍ شامل كامل، وبدايةِ لقاءٍ بين مَلَكٍ كريمٍ هو جبريل، ونبيٍّ من البشر كريم هو محمد بن عبدالله، إنه موضوع رسالة عظيمة وكفى.

٢- من جانب تسلسل الوقائع، وانتظام السياق، وتماسك الأسلوب، حتى أصبحنا مع الحديث أمام سلسلة مترابطة لا يستطيع الذهن أن ينصرف عن حَلْقةٍ من حلقاتها دون الأخرى.

٣- من جانب اختيار الكلمات والجمل ذات الجودة العالية والبلاغة الراقية: «مثل فَلَق الصبح»، «يتحنَّث فيه الليالي ذوات العدد»، «قبل أن يَنْزِع إلى أهله»، «فرجع بها الرسول ﷺ يَرْجُفُ فؤاده»، «فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوع»، «ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفَتَر الوحي».

٤- من جانب المعلومات المهمة التي وردت في الحديث بقصد الإيضاح والبيان، فقد رسمت لنا عائشة شخصية ورقة بن نوفل رَسْماً دقيقاً واضح المعالم، وسردت لنا معلومات مهمة عن شخصية الرجل وعلمه، ونسبه، وعلاقته بالإنجيل واللغة العبرانية، وشيخوخته، مما يدلُّ على علمها رضي الله عنها.

٥- من جانب رسم معالم الدور الكبير الذي قامت به خديجة رضي الله عنها في حالة مهمةٍ كهذه الحالة التي مرَّ بها الرسول ﷺ في بدء نزول الوحي عليه، إنها تغار من خديجة لشدة عناية الرسول ﷺ بها بعد موتها، ولكنها هنا في مقام العلم، فلا مكان للغيرة، إنما المكان للأمانة والصدق.

٦- من جانب أهمية الموضوع - بصفة عامة - في بيان اللحظات الأُوَل المهمّة في رحلةِ اليقين الجديدة التي بدأها - باختيارٍ من الله عز وجل - خاتم الأنبياء والمرسلين.

بهذه الجوانب أصبحنا أمام قامة بلاغية سامقة، لا نملك إلاَّ أنْ نقدِّرها، ونضعها في المقام المناسب لها من ذروة سنام البيان العربي.

وَعْكَةٌ وشعر

وَعْكَةٌ وشعر

كيف تكون حالة المسافر المهاجر حينما يترك مسقط رأسه ومراتع صباه، ومرابع شبابه هارباً بدينه الذي أصبح أغلى شيء عنده؟

كيف تكون حالتُه حينما يعاني من ألم الفراق لوطنه، وحُرْقة الوداع، وحسرة الشعور بعداوة قومه، ومحاربتهم له من أجل دينه الذي خالطت بشاشتُه قلبَه، ومع ذلك يُصاب بالحُمَّى ويعاني من حرارتها اللاَّهبة؟

كيف تكون حالة ذلك المهاجر؟

ترسم لنا صاحبة الحرير الأخضر لوحةً لواحدةٍ من حالات المهاجرين، تقرِّب إلينا الصورة فتقول: «لما قدم الرسول ﷺ المدينة، وُعِكَ أبو بكر وبلال فكان أبو بكر إذا أخذتْه الحمَّى قال:

كلُّ امـــرئٍ مـــصـــبَّح في رَحْـله

والموت أدنـى مـن شِـــــراكِ نَـعْـلِـه

وكـان بلال إذا أقلعتْ عنه الحـمَّى رفع إحـدى رجليـه على الأخرى ثم قال:

ألا ليت شـــعـــري هل أبيـتنَّ ليـلةً

بـوادٍ وحـــولـي إذخِـــرٌ وجـليـلُ

وهل أرِدَنْ يومـــاً مـــيـــاهَ مـــجنَّةٍ

وهل يبـــدُوَنْ لي شـــامـــةٌ وطفـــيلُ

يقول: اللهم العن عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأمية بن خَلف، كما أخرجونا من الأرض الصحيحة إلى أرض الوباء، والوجع، فبلغ رسولَ الله ذلك فقال: اللهم حبِّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشدّ، وصحِّحْها وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حُمَّاها واجعلها في الجُحْفَة»[1]

هكذا تروي فتاة في السابعة أو التاسعة من عمرها هذا الخبر بهذا الأسلوب الجميل، وبهذه الدقّة في الرواية، وبهذا الحفظ للشواهد الشعرية، والدعاء النبوي الكريم.

وهكذا تنقل لنا وصفاً دقيقاً لحالة أولئك الرجال الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأهليهم هرباً بدينهم من جور الكفَّار وجبروتهم.

إننا ونحن في زمن تفصل بينه وبين حالة الهجرة مئات السنوات لا نكاد نستشعر صعوبة ترك الأوطان، والرحيل عنها في أجواء مَشُوبةٍ بالخوف، والقلق من ملاحقة الأعداء وقسوتهم، ولكنَّ عائشة رضي الله عنها تقرِّب إلينا بهذا الخبر تلك الصورة.

---

(١) مسند عائشة ص: ٦٠.

فالحمَّى تسري في العظام، والألم يعتصر القلوب، ولوعة الفراق ما تزال مشتعلةً في الصدور، وهنا نرى بلال بن رباح رضي الله عنه يعبِّر عن هذا الإحساس بلعنه لِعُتاةِ قريش الذين أجبروهم على الهجرة.

إنَّه خبرٌ دقيق العبارة والوصف، جميل الأسلوب؛ فأبو بكر ينشد البيت إذا أخذته الحمى، وبلال ينشد البيتين إذا أقلعتْ عنه الحمى، ولنا أن نتصوَّر حالته وهو رافع إحدى رجليه على الأخرى ينشد البيتين ويلعن عتبة وشيبة وأمية بن خلف، إنها حالة الإنسان الذي بلغ منه الحزن مبلغاً عميقاً، ووصل به الأسى إلى هذه الدرجة من قسوة العبارة وضعف العزيمة.

وهو خبر - أيضاً - مرتَّبٌ متسلسل تبدؤه عائشة رضي الله عنها بالحديث عن الوَعكة التي أصابت أباها وبلالاً، ثم بالوصف لحالتيهما وهما يعانيان من حرارة الحمَّى وحرارة الألم، ثم بالرواية لما كانا ينشدان من الشعر، ثم تتوِّج ذلك كلَّه بما نقلته من دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام.

إنها رواية راويةٍ متقنة ماهرة جزاها الله عنا خير الجزاء.

وأخيراً.. ما أجمل هذه اللَّفتة النبوية الكريمة التي روتها لنا عائشة في آخر الحديث، ألا وهي: التوجُّه إلى الله سبحانه وتعالى في كلِّ الحالات.

فها هوذا رسول الله ﷺ حين بلغه ما قال أبو بكر وبلال يرفع يديه إلى السماء ليدعو الذي يقدر على أن يغيِّر الحالة السيئة إلى ما هو أحسن وأجمل وأكمل، وقد كان ذلك ولله الحمد، إنها توجيه نبوي كريم لكل مؤمن بربه عز وجل ألاَّ يغفل عن دعائه واللجوء إليه في كل الحالات.

يبذل المؤمن الأسباب، ويسلك الطرق المشروعة إلى ما يريد، ويتوِّج ذلك بلجوئه إلى الذي بيده مقاليد الأمور.

إنَّ حياة الرسول ﷺ مدرسةٌ عظيمة لهذا اللجوء إلى الله، فهو بعد أن عاد من الطائف طريداً جريحاً في بدايات الدعوة توجه إلى ربه بالدعاء: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى مَنْ تكلني، إلى بعيدٍ يتجهَّمني، أم إلى عدوٍّ ملَّكْتَه أمري، إنْ لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي، ولكنَّ عافيتَك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقتْ له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أنْ تُنْزِلَ بي غضبَك، أو يَحلَّ عليَّ سُخْطُك، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بك».

وهو بعد أن أعدَّ العُدَّةَ وما استطاع من القوَّة في بدر، وقف في العريش متَّجهاً إلى ربه بالدعاء والبكاء، طالباً منه النَّصر.

هكذا تكون حقيقة الإيمان.

خـــسوف

خسوف

حينما يكون الحديث عن أمور تعبُّدية، أو فقهية، أو أحكامٍ شرعية محدَّدة، فإن المتحدِّث يحتاج في هذه الحالة إلى مقدرةٍ لغوية كبيرة حتى يقدِّم لنا المادة العلمية بأسلوب فيه قَدْرٌ من طُلاوةِ الأدب، وجمال العبارة، ودقَّة الوصف.

وصاحبة الحرير الأخضر - رضي الله عنها - متميِّزة في هذا الجانب كلَّ التميُّز، كأنما تأخذ مفردات اللغة وأساليبها من صندوق بجوارها تتناول منه ما تشاء.

وإذا كان القائل قد قال عن أبي العتاهية: إنَّه كأنَّما يأخذ الشعر من كُمِّه بسبب سلاسة لغته، فإننا - بكل إنصاف - نرى أن عائشة رضي الله عنها أحق بأن يقال لها: إنها كأنما تأخذ اللغة من كمِّها.

صلاة الخسوف عبادةٌ ذات أركانٍ وواجبات، ولها صفات خاصةٌ تختلف عن غيرها من الصلوات، فكيف نقلت لنا عائشة صورة هذاه الصلاة؟

تقول - فيما رواه البخاري ومسلم، ومالك في الموطأ: «خسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ، فقام رسول الله يصلي فأطال

القيام جداً، ثم ركع فأطال الركوع جداً، ثم رفع فأطال القيام، وهو دون القيام الأوَّل، ثم ركع فأطال الركوع وهو دون الركوع الأوَّل، ثم سجد، ثم قام فأطال القيام وهو دون القيام الأوَّل، ثم ركع وهو دون الركوع الأوَّل، ثم سجد ففرغ من صلاته، وقد جُلِّي عن الشمس، فقام فخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه فقال: إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فصلُّوا وتصدَّقوا واذكروا الله، ثم قال: يا أمَّة محمَّد، والله ما من أحدٍ أغير من الله، أنْ يزني عبده، أو تزني أَمَتُه، يا أمة محمد: لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً».

أرأيتم كيف تصرِّف عائشة الكلام على هذا المستوى من الجودة والإتقان؟

أرأيتم كيف تقدِّم لنا على طبق اللغة الراقية هذا العلم الغزير، وهذه الأحكام الشرعية الجليلة؟

إنَّ المتأمِّل لوصفها الدقيق لصلاة الكسوف ليشعر أنه أمام لاقطة دقيقة لآلة تصوير متطوِّرة ترينا الصورة في أوضح حالاتها، وتشعرنا بجمال هذا الترتيب والتنسيق في هذه العبادة المشروعة.

تسلسل في طول القيام والركوع والسجود من الأطول إلى الأقصر، وابتهال إلى الله وصدق توجُّهٍ إليه، حتى جُلِّي عن الشمس، وزال عنها حاجب الخسوف.

ثم تنقل لنا صاحبة الحرير الأخضر صورة أخرى نرى فيها الرسول ﷺ قائماً يخطب مبيِّناً للناس الحكمة من آيتي خسوف الشمس والقمر اللتين يخوِّف الله بهما عباده، ولا علاقة لهما بموت أحدٍ أو حياته، وقد علمنا من روايات أخرى للحديث أن خسوف الشمس كان في اليوم الذي مات فيه إبراهيم بن محمد عليه الصلاة والسلام.

ثم تنقل لنا كلمات أخرى من خطبة الرسول ﷺ، فيها توجيهٌ آخر، قد يتبادر إلى ذهن غير المتأمِّل أنه خارج عن موضوع الخسوف، لا علاقة له به.

إنه قول الرسول ﷺ: «يا أمة محمد والله ما من أحدٍ أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته».

ولكنَّ المتأمِّل يدرك أن هذا التوجيه مرتبط بالخسوف ارتباطاً قوياً، فمادام الخسوف آية من آيات التخويف من الله لعباده حتى يتوبوا إليه، فإن من أعظم الذنوب التي تُعمل في الخفاء عن الناس «الزِّنا»، فالرسول ﷺ يوجِّه الناس إلى غيرة الله الكبيرة على الناس، وفي ذلك إيحاء بأنَّ الخسوف إنما يكون للتخويف من مثل هذه الأعمال.

رضي الله عن صاحبة الحرير الأخضر، فهي مثالٌ للمرأة المسلمة الواعية التي دأبتْ على إعداد نفسها علمياً وثقافياً وأدبياً لتكون ذات دور كبير في هداية الناس - بإذن الله -.

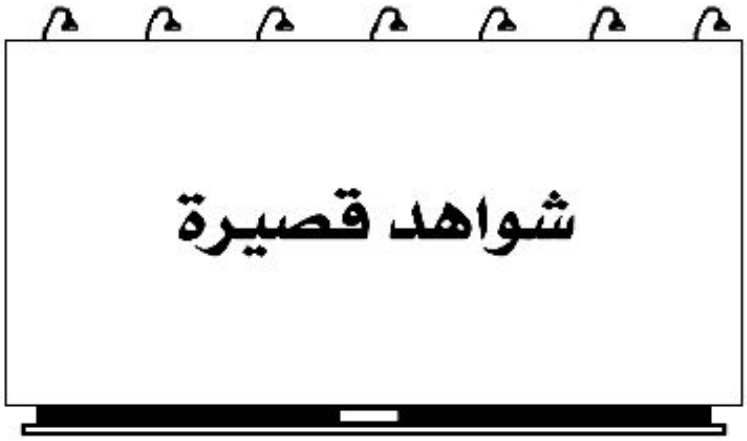
شواهد قصيرة

شواهد قصيرة

الشواهد على جمال اللغة وصحتها، ودقة الوصف ووضوحه كثيرة فيما روي لنا عن صاحبة الحرير الأخضر، وقبل أن نغادر هذا الجانب من كتابنا نورد بعض الشواهد القصيرة على ذلك:

١- أخبرت عائشة رضي الله عنها: أن النبيَّ ﷺ لما جاء إلى مكة دخل من أعلاها، وخرج من أسفلها.

٢- قالت عائشة: طيَّبت رسول الله ﷺ لإحرامه قبل أن يحرم، ولحلِّه قبل أن يطوف بالبيت.

٣- تصف حالة إمامة أبي بكر للناس بالصلاة حين كان الرسول ﷺ مريضاً فتقول: فخرج أبو بكر يؤم الناس، فلما كبر أبو بكر خرج النبي ﷺ، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأشار النبي ﷺ أنْ مكانك، قال: فمكث مكانه، فجلس النبي ﷺ بحذائه فجعل أبو بكر يصلي بصلاة رسول الله، ويصلي الناس بصلاة أبي بكر حتى قضوا الصلاة.

٤- قالت: كان رسول الله ﷺ يصلِّي صلاته من الليل وأنا معترضة بينه وبين القبلة، وأنا مضطجعة على فراشه الذي يرقد عليه هو وأهله.

٥- قالت - رضي الله عنها -: ما من امرأةٍ أحبّ إليَّ من أن أكون في مِسْلاخِها من سَوْدة بنت زمعة من امرأة فيها حِدّة، فلما كبرت جعلت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة، قالت: يا رسول الله، جعلت يومي منك لعائشة، قالت: كان النبي عليه الصلاة والسلام يقسم لعائشة يومها ويوم سودة.

٦- قالت: لعب السودان عند رسول الله ﷺ فدعاني فكنت أنظر إليهم من فوق عنقه، فلم أزل أنظر إليهم حتى كنت أنا الذي انصرفت.

٧- سئلت عائشة عن ولد الزِّنا فقالت: ليس عليه من خطيئة أبويه شيء، وقرأت الآية: «ولا تزر وازرة وزر أخرى».

٨- قالت: كان رسول الله ﷺ يصلي صلاة الليل قائماً، فلما دخل في السنّ جعل يجلس، حتى إذا بقي من السورة ثلاثون أو أربعون قام فقرأها ثم سجد.

٩- قالت: كنت أنا والنبي ﷺ نغتسل من إناءٍ واحد - كلانا منه -.

١٠- كان رسول الله ﷺ يصلي ثلاث عشرة يوتر منهن بخمس، لا يجلس في شيء من الخمس حتى يجلس في آخرهن فيسلم.

١١- قالت: كان النبي ﷺ إذا اغتسل من جنابةٍ غسل يديه ثم توضأ وضوءه للصلاة، ثم تخلَّل أصول الشعر بالماء حتى إذا رأى أن قد استبرأ البشرة أفرغ على رأسه ثلاثاً، ثم أفاض على سائر جسده.

١٢- قالت: ما خيِّر رسول ﷺ بين أمرين إلاَّ اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس.

١٣- قالت: إن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة يتتبعون بذلك رضا رسول ﷺ.

١٤- قالت: إذا تمنَّى أحدكم فلْيُكْثِرْ، فإنما يسأل ربَّه.

١٥- قالت: أُتي النبيُّ صلى الله عليه وسلم بصبيٍّ فبال عليه فأتْبعه الماء ولم يغسِلْه.

هذه شواهد مختصرة كلُّها صحيحة كما ورد في كتب الحديث. فيها تنويع في الموضوع، واختصار في العبارة، وفطنة ودراية بالكلمة وقيمتها، وفيها علم غزير، فإذا كنَّا نعلم أن عائشة رضي الله عنها - كما أخبرتْ عن نفسها - تزوجت رسول الله ﷺ، وعمرها سبع سنين، ودخل بها، وعمرها تسع سنين، وتوفي عنها وهي دون العشرين، فإننا سنقول: سبحان الله العظيم الذي وهبها هذه المواهب، وأكرمها بهذا المقام الرفيع.

ثم نقول: ما أحوج نساء المسلمين كباراً وصغاراً إلى علاقة قوية لا تنقطع بهذه المرأة الصالحة ذات السيرة العطرة (صاحبة الحرير الأخضر)؛ لأنها مثال واضحٌ للقدوة الصالحة التي بَنَتْ شخصيَّتها بناءً قوياً دينياً وثقافياً وأدبياً وعلمياً؛ فكانت على هذه المكانة من العلم والبلاغة والبيان.

وإني لأستأذنكم أن أقف وقفة خاطفة مع واحدٍ من الشواهد الماضية، ألا وهو قولها: «إنَّ الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة، يتتبعون بذلك رضا رسول الله ﷺ».

أتدرون - أيُّها الأحبة - أن هذا النص جوهرة من جواهر البيان وحسن الصياغة، والتواضع، إنَّه أنموذج للإبداع في لغة التخاطب.

كيف ذلك:

الحديث متعلِّق بها، وهي تنقله لأنه يتضمَّن حكماً شرعياً في طريقة التعامل مع الزوجات لمن لديه أكثر من زوجة، وفيما يجوز أن تناله واحدة منهن دون غيرها، ومع ذلك فقد نقلته بأسلوب مؤدَّب جميل، فهي تقول: «يتحرون بهداياهم يوم عائشة»، ولم تقل: «يومي»، مع أنها في قرارة نفسها سعيدة بذلك، ونحن - أيضاً - به سعداء ما دام متعلِّقاً بمن يحبها رسول الله ﷺ، ويصرِّح بحبه لها.

ثم تقول: يتتبَّعون بذلك رضا رسول الله ﷺ.

ما أجمله من قول وما أصدقَه، فهي الرَّاوية الصادقة التي تعرف معنى كونها تحدِّث عن أفضل خلق الله.

هي الصادقة لأنها قالت هذا، ولم ينفِ أحدٌ ما قالته، ولو كان فيه مجالٌ للنفي لبادرت به إحدى زوجات النبي ﷺ اللاتي كن

يدخلن - أحياناً - في منافسات كريمة شريفة مع صاحبة الحرير الأخضر.

هنا - أيها الأحبة - تأتي المقدرة الكبيرة على التعبير، فعائشة في هذا الخبر نقلت شيئاً عن نفسها، فيه مزيَّة لها، ولكننا لم نشعر بكلمة نابية تصدم أذواقنا أو تشعرنا بأنها تروي ذلك غروراً وكبْراً، فهي أبعد الناس عن ذلك، وإلا لما قالت: يتتبعون بذلك رضا رسول الله ﷺ، مؤكدة بهذا أنهم لا يفعلون هذا من أجلها هي، وإنما هو من أجل إرضاء الرسول عليه الصلاة والسلام، وسوف نقف - إن شاء الله - وقفة خاصة مع هذا الموضوع.

هكذا ترقى لغة صاحبة الحرير الأخضر ويَدِقُّ وصفها، ويسمو بيانها - رضي الله عنها -.

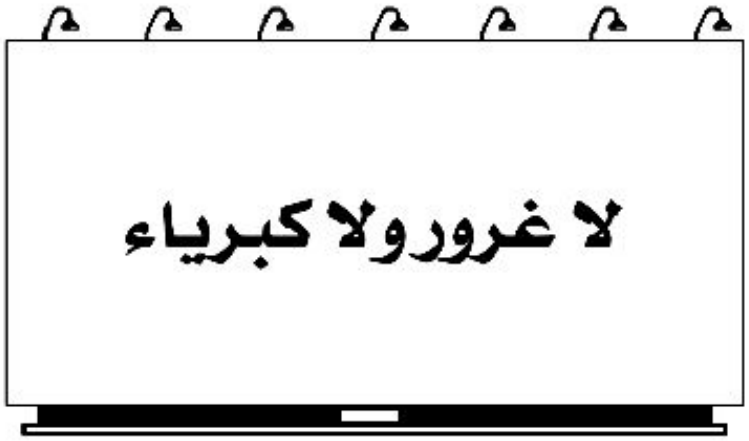
لا غرور ولا كبرياء

لا غرور ولا كبرياء

القلوب المطمئنة بالإيمان، المتعلِّقة بالرحمن، لا يمكن أن تحمل وزن ذرَّة من غرور أو كبر، ولا يمكن أن تُكِنَّ في شراييها شعوراً بالتعالي على أحدٍ من الناس أبداً؛ لأن الإيمان بالله سبحانه وتعالى والكبر لا يجتمعان في قلب مؤمن، ولا يجري بهما كلامٌ على لسانه الرَّطْب بذكر الله سبحانه وتعالى.

وصاحبة الحرير الأخضر بعيدةٌ كلَّ البعد عن أي غرورٍ أو كبرياء أو احتقارٍ لأحد، لأنها - إلى جانب إيمانها بربها - تلميذة محمد بن عبدالله عيه الصلاة والسلام الذي كان يجالس الفقراء والمساكين كما يجالس الأغنياء وعلْيةَ القوم، بل إنه كان إلى مجالسة الفقراء والمساكين أمْيَلَ وَأقرب، وكان يقدِّم أهل الخير والفضل وإن كانوا من أفقر الناس حالاً، وأقلهم بين الناس مكانةً.

إنَّ عائشة جديرةٌ - في المقاييس البشرية - بالفخر والاعتزاز على غيرها من النساء، والرجال أيضاً، لقربها المعروف من سيِّد الخلق صلى الله عليه وسلَّم، ولكنَّها من أبعد الناس عن ذلك بسبب ما ذكرنا من ورعها ودينها وتربيتها المتميزة في بيت النبوَّة، وملازمتها الفريدة لسيد الخلق عليه الصلاة والسلام حتى مات بين

سحرها ونحرها، وحتى لامس ريقه ريقها من خلال السواك الذي استاكت به وأعطته الرسول ﷺ فتسنَّن به قبل وفاته.

إنَّ هذه المدرسة النبوية المحمديَّة هي التي ربَّت العالم كلَّه على الأخلاق الفاضلة والإحسان والتواضع، فكيف لا يظهر أثر تربيتها العظيمة في أقرب الناس إلى صاحب المدرسة رسول ربِّ العالمين عليه الصلاة والسلام؟

يروي أبو بكر السجستاني صاحب كتاب مسند عائشة رضي الله عنها[1] عن صاحبة الحرير الأخضر أنها قالت لعبدالله بن الزبير - ابن اختها -: إذا أنا مُتّ فادفنّي موضع أخي بالبقيع، قالت: وكان في بيتها موضع قبرٍ، فقالت: لا أُزكَّى به أبداً.

وقد أخرج ابن سعدٍ في كتاب الطبقات عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت عند وفاتها: إني قد أحدثْتُ بعد رسول الله ﷺ، فادفنوني مع أزواج النبي عليه الصلاة والسلام، وأورد ذلك الذهبي في سير النُّبلاء[2] وعلَّق عليه بقوله: تعني عائشة بقولها أحدثَتْ: مسيرَها يوم الجمل، فإنها ندمت على ذلك ندامةً كُلِّية، وتابت من ذلك: على أنها ما فعلت ذلك إلا متأوِّلةً قاصدةً للخير.

---

(١) ص: ٩٠.

(٢) جـ٢ ص: ١٩٣.

أرأيتم - أيُّها الأحبة - كيف تكون النفوس الكبيرة والقلوب العامرة بالإيمان، فقد كان في حجرتها موضع قبر، وقد كان المنتظر منها أن توصي بدفنها فيه مجاورة لقبر حبيبها، وحبيبنا عليه الصلاة والسلام، ولكنها أوصت بغير ذلك معترفةً بأن خروجها (يوم الجمل) يؤخِّرها في نظرها عن الفوز بأنْ يكون قبرها بجوار قبر أفضل الخلق، وحريصةً من جانب آخر على ألاَّ تزكِّي نفسها، ويزكِّيها الناس بذلك، فهي تقولها صريحة واضحةً: «لا أُزكَّى به أبداً».

هنا تواضع شامخ، وشموخ متواضع، هنا مدرسةٌ محمدَّية، أخرجت لنا هذا الشموخَ العائشيَّ الجميل.

في الحديث الآخر الذي مرَّ معنا: كان رسول الله ﷺ يصلِّي صلاته من الليل وأنا معترضة بينه وبين القبلة، وأنا مضطجعة على فراشه الذي يرقد عليه هو وأهله.

يا له من رُقيٍّ في العبارة يُمتعنا ويرقى بأذواقنا. تأملوا معي - أيها الأحبة - قولها: «وأنا مضطجعة على فراشه الذي يرقد عليه هو وأهلُه» إنه فراشه عليه الصلاة والسلام، وهو فراشها، فكان بإمكانها أن تقول «فراشي» ثم قالت: «هو وأهله»، وكان بإمكانها أن تقول: هو وأنا».

إنه البيان العائشيّ البديع، أدبٌ جَمٌّ، وذوق رفيع، وبعدٌ عن الغرور والكبرياء، «هو وأهلُه» جملةٌ تستحق أن تكتب بماء الذهب لما تحمله من الإيحاءات الجميلة التي يعرفها أهل العلم ببدائع لغة القرآن، التي تتقنها صاحبة الحرير الأخضر كلَّ الإتقان.

ما أبعدَ الغرورَ والكبرياء عن ذات الفضل على النساء!!

الرَّاويةُ العالمة

قال أبو موسى الأشعري:

ما أشكل علينا - أصحاب رسول الله ﷺ - حديث قط، فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً.

قال الزهري:

لو جمع علم عائشة إلى علم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل.

الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة

بدر الدين الزركشي

الرَّاويةُ العالمة

جانب (العلم) من أهم الجوانب البارزة في شخصية صاحبة الحرير الأخضر، فهي في كلِّ ما ترويه من الأحاديث الخاصة والعامة تضع بين أيدي الناس «علماً غزيراً» صحيحاً مرتبطاً بالذي لا ينطق عن الهوى، حتى وهي تتحدَّث عن نفسها وعلاقتها بالرسول ﷺ، فإنها تبيِّن بذلك أحكاماً شرعيَّة، وتحدِّد لنا أسباباً صحيحة لنزول بعض آيات القرآن الكريم، تقرِّب منا حقيقة المعنى الصحيح الذي قد يغيب حتى عن بعض الصحابة رضي الله عنهم.

إنَّ كثيراً من الأحكام الشرعية، وكثيراً من المعلومات المنوَّعة مرتبط بعائشة رضي الله عنها ارتباطاً وثيقاً.

فحديث الإفك بتفاصيله العجيبة متضمِّن لعدد من الأحكام الشرعية التي نزل بها القرآن الكريم.

وحديث ضياع عقدها الذهبي الصغير في بعض الأسفار، متضمِّن لنزول أحكام التيمُّم لمن لا يجد الماء.

وحديث مواقفها العائلية مع بعض أمهات المؤمنين يتضمن أحكاماً فقهية، وتوجيهات شرعية في بناء الأسرة، والعلاقات بين الأزواج وزوجاتهم، وبين الزوجات أنفسهنَّ حينما يكنَّ في كنفِ زوجٍ واحد.

وحديث لعبها مع صويحباتها بِلُعَبِ البنات المصنوعة من القماش، واستماعها إلى غناء بعض الجواري، ونظرها إلى الحبشة وهم يلعبون بالحراب في المسجد، يتضمَّن أحكاماً شرعية تضيء الطريق للحياة الأسرية المستقرة.

إنها راويةٌ عالمة، تنقل الحديث، والخبر، والقصة نَقْل العالم الفقيه الذي يعرف أسباب ما ينقل، ويفهم دلالاته اللغوية، ومدلولاته الشرعية.

إننا أمام بحر زاخرٍ من العلم النافع، لا يقذف إلى شواطئنا إلاَّ بالجواهر واللآلئ الثمينة.

ولا بأس أن نرحل رحلةً قصيرة مع بعض ما نقلت إلينا أمُّنا صاحبة الحرير الأخضر من الأحاديث المليئة بجواهر العلم الثمينة:

١- قالت عائشة رضي الله عنها: كانت قريش تصوم عاشوراء في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه، فلما هاجر إلى المدينة صامه - تعني عاشوراء - ومن شاء تركه.

مسند عائشة ص: ٦٢

٢- قالت عائشة رضي الله عنها: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنَّا بالبيداء - أو بذات الجيش - انقطع عِقْدٌ لي، فأقام الرسول ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق فقالوا: ألا

ترى إلى ما صنعتْ عائشة؟ أقامت بالرسول ﷺ والناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله عليه الصلاة والسلام واضعٌ رأسه على فخذي قَدْ نام، فقال: حَبَسْتِ رسول الله ﷺ والناسَ وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فقالت عائشة: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعنني بيده في خاصرتي فلا يمنعني من التحرُّك إلا مكان الرسول ﷺ على فخذي، فقام الرسول ﷺ حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمُّم، فتيمَّموا، فقال أُسيد بن الحُضير: ما هي بأوَّل بركتكم يا آل أبي بكر، قالت: فبعثْنا البعير الذي كنتُ عليه، فأصبْنا العِقْدَ تحته.

صحيح البخاري، كتاب التيمُّم، حديث (٣٣٤)

٣- قالت عائشة رضي الله عنها: أَعْتَم رسول الله ﷺ في العشاء حتى نادى عمر: قَدْ نام النساء والصبيان، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «إنه ليس أحدٌ من أهل الأرض يُصلِّي هذه الصلاةَ غيرَكم» ولم يكن أحد يومئذٍ يصلِّي غيرَ أهل المدينة.

صحيح البخاري، كتاب الأذان، حديث (٨٦٤)

٤- قالت عائشة: إنْ كان رسول الله ﷺ ليُصلِّي الصُّبْحَ، فينصرف النساء متلفِّعات بمروطهنَّ ما يُعْرَفْنَ من الغَلَسِ..

صحيح البخاري كتاب الأذان، حديث رقم (٨٦٧)

٥- قالت عائشة رضي الله عنها: كان الناسُ مَهَنَةَ أنفسهم، وكانوا

إذا راحوا إلى الجمعة راحوا في هيئتهم، فقيل لهم: «لو اغتسلتم».

صحيح البخاري، كتاب الجمعة، حديث (٩٠٣)

٦- قالت عائشة: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بُعاث، فاضطجع على الفراش وحوَّل وجهه، وجاء أبو بكر فانتهرني وقال: مِزْمَارةُ الشيطان عند رسول الله ﷺ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ، فقال: دعها، فلما غَفَل غمزتُهما فخرجتا.

صحيح البخاري، كتاب العيدين، حديث (٩٤٩)

٧- قالت عائشة: دخل أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنّيان مما تقاولت الأنصارُ يوم بُعاث، قالت: وليستا بمغنّيتين، فقال أبو بكر: بمزامير الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟ وذلك في يوم عيد، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، إن لكل قومٍ عيداً، وهذا عيدُنا».

صحيح البخاري، كتاب العيدين، حديث (٩٥٢)

٨- قالت صاحبة الحرير الأخضر: كلَّ الليل أوتر رسول الله ﷺ، وانتهى وتره إلى السَّحَر.

صحيح البخاري، كتاب الوتر، حديث (٩٩٦)

٩- قالت - رضي الله عنها -: ما ألْفاه السَّحَرُ عندي إلاَّ نائماً، تعني النبيّ ﷺ.

صحيح البخاري، كتاب التهجد، حديث ١١٣٣

١٠- قالت عائشة: كأني أنظر إلى وَبيص الطيب في مفارق رسول الله ﷺ وهو محرم.

صحيح البخاري، كتاب الحج، حديث (١٥٣٨)

١١- عن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال لها: «ألم تَرَيْ أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟» فقلت: يا رسول الله ألا تردُّها على قواعد إبراهيم؟ قال: «لولا حِدْثانُ قومك بالكفر لفعلتُ».

فقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ﷺ، ما أُرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنيْن اللذين يليان الحِجْر إلاَّ أنَّ البيت لم يُتمَّم على قواعد إبراهيم.

صحيح البخاري، كتاب الحج، حديث (١٥٨٣)

١٢- قالت صاحبة الحرير الأخضر (عائشة) رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله، ألا نغزو أو نجاهد معكم؟ فقال: لكنَّ أحسنَ الجهاد وأجملَه الحج، حَجٌّ مبرور. فقالت عائشة: فلا أدع الحجَّ بعد إذْ سمعت هذا من رسول الله ﷺ.

صحيح البخاري، كتاب جزاء الصيد، حديث (١٨٦١)

١٣- قالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يُصغي إليَّ رأسَه، وهو مجاورٌ في المسجد، فأرجِّله وأنا حائض.

صحيح البخاري، كتاب الاعتكاف، حديث (٢٠٢٨)

١٤- قالت صاحبة الحرير الأخضر رضي الله عنها: مكث النبيُّ ﷺ كذا وكذا يُخيَّل إليه أنه يأتي أهله ولا يأتي، قالت عائشة: فقال لي ذا يوم: يا عائشة، إن الله تعالى أفتاني في أمر استفتيتُه فيه: أتاني رجلان فجلس أحدهما عند رجليَّ، والآخر عند رأسي، فقال الذي عند رجليَّ للذي عند رأسي: ما بال الرجل؟ قال: مَطبوبٌ - يعْني مسحوراً، قال: ومَنْ طَبَّه؟ قال: لبيد بن أعصم، قال: وفيمَ؟ قال: في جُفٍّ طَلْعةٍ ذكر، في مُشْطٍ ومُشاطَة، تحت رَعُوفةٍ في بئرِ ذَروان، فجاء النبيُّ ﷺ فقال: هذه البئرُ التي أُرِيتُها كأنَّ رُؤوس نخلها رُؤوس الشياطين وكأنَّ ماءَها نُقَاعَةُ الحِنَّاء، فأمر به النبيُّ ﷺ فأُخرج، قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله فهلاَّ - تعني تنشَّرْتَ؟ - فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «أما الله فقد شفاني، وأمَّا أنا فأكره أنْ أُثيرَ على الناسِ شرّاً»، قالت: ولبيد بن أعصم رجلٌ من بني زُريق حليفٌ ليهود.

صحيح البخاري، كتاب الأدب، حديث (١٠٦٣)

١٥- قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا رأى مَخيلةً في السماء أقبل وأدبر، ودخل وخرج وتغيَّر وجهه، فإذا أمطرت السماء سُرِّيَ عنه، فعرَّفتْه عائشة ذلك فقال: «ما أدري لعله كما قال قوم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ

قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .[الأحقاف: ٢٤]

صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، حديث (٣٢٠٦)

١٦- عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ رفاعةَ القرظي طلَّق امرأته فَبَتَّ طلاقَها، فتزوَّجها بعده عبدالرحمن بن الزبير، فجاءت النبيَّ ﷺ فقالت: يا رسول الله، إنها كانت عند رفاعة فطلَّقها آخرَ ثلاثِ تطليقات، فتزوَّجها بعد عبدالرحمن بن الزبير، وإنَّه - والله - ما معه إلا مثلُ هذه الهُدْبَة، لِهُدْبةٍ أخذتها من جلبابها، قال: وأبو بكر جالس عند النبي ﷺ، وابنُ سعيد بن العاص جالسٌ بباب الحجرة ليؤذن له، فطفقَ خالدٌ - وهو ابن سعيد بن العاص - ينادي أبا بكر: يا أبا بكر، ألا تزجر هذه عمَّا تجهر به عند رسول الله ﷺ، وما يزيد رسول الله عليه الصلاة والسلام على التَّبَسُّم، ثم قال: «لعلَّكِ تريدين أن ترجعي إلى رفاعة، لا، حتى تذوقي عُسَيلتَه ويذوق عُسيلتَكِ».

صحيح البخاري، كتاب الأدب، حديث (٦٠٨٤)

هذه الأحاديث لا تمثِّل إلا قَطَراتٍ من بحر علم صاحبة الحرير الأخضر - رضي الله عنها - فقد أجريت يدي على صفحات كتابٍ واحد هو (صحيح البخاري) متنقِّلاً بين أبوابه، كلَّما رأيت اسم عائشة رضي الله عنها في حديث نقلته، فكانت النتيجة هذه الباقة العطرة التي ضمت ستة عشر حديثاً في موضوعاتٍ شتَّى، تؤكِّد لنا

بتنوُّعها أننا أمام راويةٍ عالمةٍ، تنقل إلينا من العلم النَّبويّ ما يشفي الصدور، ويمنح العقولَ فهماً ومعرفة وعلماً نافعاً.

إنها باقة عطرة من العلم النافع الغزير، فقد أفادتنا عائشة رضي الله عنها في عددٍ من المسائل المرتبطة بمصالح الدنيا والآخرة.

لقد رأينا في ستة عشر حديثاً فقط، مما ورد في صحيح البخاري دون غيره من كتب الحديث الأخرى، مسائل متعددة هي: صيام عاشوراء، والأمر بالتيمُّم حين يُفقد الماء، وجواز تأخير صلاة العشاء حتى يشتدَّ الإعتام، وجواز التبكير بصلاة الفجر حتى ما يعرف الناس بعضهم من الغَلَسِ، ومشروعية الاغتسال يوم الجمعة، وبيان السبب في ذلك، جواز تمييز يوم العيد بالفرح وشيء من الغناء الذي لا يخرج عن حدود ما وصفت لنا عائشة رضي الله عنها من حالة الجاريتين، انتهاء الوتر إلى السحر والنوم بعده حتى يحين وقت صلاة الفجر، مشروعية التطيُّب للمحرم قبل إعلان إحرامه، بيان حالة بناء الكعبة والسبب في أنها قاصرة عن حدود قواعد إبراهيم عليه السلام، وبيان مشروعية مراعاة أحوال الناس حرصاً على عدم إثارة الفتنة، بيان الأجر الكبير الذي يوازي أجر الجهاد في الحج بالنسبة إلى النساء، بيان جواز غسل وتمشيط رأس المعتكف من قبل زوجته الحائض، بيان حقيقة ما ورد عن

سحر لبيد بن أعصم للرسول ﷺ، وكيف عافى الله رسوله ﷺ منه. بيان أهمية الخشية من الله من خلال موقف الرسول ﷺ من الغيم الكثيف، وما يصاحبه من الرِّيح، بيان الحكم الشرعي في شأن المطلَّقة من زوجها طلاقاً بائناً، وأنه لا يجوز لها الرجوع إلى زوجها الأوَّل إلا بعد زواج من رجلٍ آخر ومباشرته لها.

إنها قضايا متعددة منها ما هو متعلِّق بالعبادة، والصيام والغسل لصلاة الجمعة، وتأخير صلاة العشاء وتقديم صلاة الفجر، ومنها ما هو متعلق بأمور اجتماعية أسرية، ومنها ما هو متعلِّق ببعض وسائل الترويح عن النفس، ومنها ما هو متعلق بالسحر وطريقة فكِّه والخلاص منه، ومنها ما هو متعلِّق بالمعرفة الحقيقية بالله عز وجل، والخوف منه والرجاء فيما عنده على علمٍ وبصيرة.

هذه الموضوعات كلها في عدد قليل من الأحاديث الكثيرة التي روتها صاحبة الحرير الأخضر عن الرسول ﷺ، فكيف يكون الأمر حينما نستعرض كل ما روته من الأحاديث؟

لا شك أننا سنكون أمام كنزٍ علميٍّ كبير.

الرَّاويةُ النَّاقدة

الراوية الناقدة

إنَّ راويةً ذكيَّة حافظةً عالمةً بأحكام ما تروي، صادقةً في روايتها، ناهلةً من المنهل النبويّ العذب، لقادرةٌ على معرفة الصواب من الخطأ، وعلى التوجيه الصحيح لبعض الأحاديث التي قد يفهمها بعض الصحابة على غير وجهها، وإنها لقادرةٌ أيضاً على التَّصويب لبعض ما قد يرد على ألسنة بعض الصحابة من الخطأ في تفسير بعض آيات القرآن الكريم.

وإنَّ صاحبة الحرير الأخضر - رضي الله عنها - لَذاتُ دورٍ كبيرٍ في هذا المجال، جعلها في مقدمة «الرُّواة العلماء الناقدين» الذين منَّ الله عليهم بالفهم الثاقب، والعلم الراسخ، والفقه العميق لكثير من مسائل الدين وأحكام الشرع.

لم تكن عائشة - رضي الله عنها - تجد عناءً في تصويب بعض الأخطاء وتوجيه بعض النصوص، ولم تكن تتردَّد في شيء من ذلك؛ لأن علمها بما تنتقد راسخٌ، ومعرفتها بما تصوِّب عميقة.

١- قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: صَدرْتُ مع عمرَ رضي الله عنه من مكة حتى إذا كنا بالبيداء، إذا هو بركبٍ تحت ظلِّ سَمُرة، فقال: اذهب فانظر من هؤلاء الرَّكْب؟ قال: فنظرت فإذا صُهيبٌ،

فأخبرته، فقال: ادعه لي، فرجعت إلى صهيب فقلت: ارتحل فالحقْ بأمير المؤمنين، فلما أُصيب عمر دخل صهيب يبكي يقول: واأخاه، واصاحباه، فقال عمر رضي الله عنه: يا صهيبُ، أتبكي عليَّ وقد قال رسول الله ﷺ: إن الميِّت يعذَّب ببعض بكاء أهله عليه؟

صحيح البخاري، كتاب الجنائز، حديث (١٢٨٧)

٢- قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة - رضي الله عنها، فقالت: يرحم الله عمر، والله ما حدَّث رسول الله ﷺ، إنَّ الله ليعذِّب المؤمن ببكاء أهله عليه ولكنَّ رسول الله ﷺ قال: إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه.

وقالت حسبكم القرآن ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾.

صحيح البخاري، كتاب الجنائز، حديث (١٢٨٨)

٣- أخبرت عَمْرةُ بنتُ عبدالرحمن أنها سمعت عائشة رضي الله عنها تقول: إنَّما مرَّ رسول الله ﷺ على يهوديةٍ يبكي عليها أهلها فقال: إنهم يبكون عليها، وإنَّها لَتعذَّب في قبرها.

صحيح البخاري، كتاب الجنائز، حديث (١٢٨٩).

٤- قال عروة بن الزبير سألت عائشة رضي الله عنها، فقلت لها أرأيت قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ فوالله ما

على أحدٍ جُناح أن لا يطَّوَّف بالصفا والمروة، قالت: بئس ما قلت يا ابن أختي، إنَّ هذه لو كانت كما أوَّلْتَها عليه كانت «لا جناح عليه أنْ لا يتطوَّف بهما»، ولكنها أنزلتْ في الأنصار، كانوا قبل أنْ يُسْلموا يُهلّون لِمَناة الطاغية التي كانوا يعبدونها بالمشلَّل، فكان مَنْ أهلَّ يتحرَّج أنْ يطوف بين الصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، قالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتحرَّج أن نطوف بين الصفا والمروة فأنزل الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ** ﴾، قالت عائشة رضي الله عنها: وقد سنَّ رسول الله ﷺ الطواف بينهما، فليس لأحدٍ أنْ يترك الطواف بينهما، ثم أَخْبَرتُ أبا بكر بن عبدالرحمن فقال: إنَّ هذا العلم ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يذكرون أنَّ النَّاسَ - إلاَّ من ذكرت عائشة - ممن كان يُهِلُّ بَمناة، كانوا يطوفون كلُّهم بالصفا والمروة، فلما ذكر الله تعالى الطَّواف بالبيت ولم يذكر الصفا والمروة وأنَّ الله أنزل الطواف بالبيت، فلم يذكر الصفا، فهل علينا من حَرَجٍ أنْ نطَّوف بالصفا والمروة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ..** ﴾.

قال أبو بكر: فأسمع هذه الآية نزلت في الفريقين كليهما، في الذين كانوا يتحرَّجون أنْ يطَّوَّفوا بالجاهلية بالصفا والمروة، والذين يطَّوَّفون، ثم تحرَّجوا أنْ يطَّوَّفوا بهما في الإسلام من

أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت، ولم يذكر الصفا، حتى ذكر ذلك بعدما ذكر الطواف بالبيت.

صحيح البخاري، كتاب الحج، حديث (١٦٤٣)

٥- روى عروة بن الزبير أنَّ ناساً طافوا بالبيت بعد صلاة الصبح، ثم قعدوا إلى المذكِّر حتى إذا طلعت الشمس قاموا يصلُّون، فقالت عائشة: قعدوا حتى إذا كانت الساعة التي تكره فيها الصلاة قاموا يصلُّون.

صحيح البخاري، كتاب الحج، حديث (١٦٢٨)

٦- ذُكر عند عائشة رضي الله عنها أنَّ ابن عمر رضي الله عنهما رَفَع إلى النبي ﷺ: إنَّ الميِّت ليعذَّب في قبره ببكاء أهله، فقالت: وَهَلَ، إنما قال رسول الله ﷺ: إنَّه لَيعذَّبُ بخطيئته وذنبه، وإنَّ أهله ليبكون عليه الآن.

صحيح البخاري، كتاب المغازي، حديث (٣٩٧٨)

٧- قال ابن عمر: وقف النبي ﷺ على قليب بَدْر، فال: هل وجدتهم ما عد ربكم حقاً؟ ثم قال: إنهم الآن يسمعون ما أقول، فذُكر لعائشة فقالت: إنَّما قال النبي ﷺ: إنهم الآن ليعلمون أنَّ الذي كنت أقول لهم هو الحقّ ثم قرأت: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾.

صحيح البخاري، كتاب المغازي، حديث (٣٩٨٠)

٨- أخبر عروة بن الزبير أنه سأل خالته عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ

كُذِبُوا ﴾. قال: قلت: أكُذِبوا أم كُذِّبوا؟ قالت عائشة رضي الله عنها: بل كُذِّبوا - يعني بالتشديد - قلت: والله لقد استيقنوا أنّ قومهم كذّبوهم فما هو بالظن قالت: أجل - لعمري - لقد استيقنوا بذلك، فقلت لعلها: وظنوا أنهم قد كُذِبُوا - مخفَّفة - قالت: معاذَ الله لم تكن الرسل لتظن ذلك بربها، قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتْباع الرسل الذين آمنوا بهم، وصدَّقوهم فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر، حتى إذا استيأس الرسل ممَّن كذَّبهم من قومهم وظنت الرسل أنَّ أتباعهم قد كذَّبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك.

صحيح البخاري، كتاب التفسير، حديث (٤٦٩٥)

هذه أحاديث أثبتت لنا تلك المقدرة العلمية لدى صاحبة الحرير الأخضر رضي الله عنها، حتى صارت تناقش القضايا الشرعية، والمسائل العلمية بهذه الدِّراية والفهم، وحتى صارت مقصداً لبعض من تشتبه عليهم معاني بعض الآيات أو الأحاديث من الصحابة رضي الله عنهم.

وإني لأرى في شخصية (عائشة) مثالاً مشرقاً لشخصية المرأة المسلمة الواعية، التي تحمل من العلم والفقه والورع ما يحول بينها وبين الانخداع بأيَّة دعوة منحرفة مهما كان بريقها، والانسياق لأيِّ ناعقٍ مهما كان أثره.

إننا نعيش هنا مع ناقدةٍ نقدتْ بَعْض أقوال وأفعال كبار الصحابة رضي الله عنهم، مستخدمةً أرقى أنواع أساليب النقد الموضوعي البنَّاء الذي يعتمد على الدليل الشرعي الواضح من كتابٍ أو سنَّة.

فها هي ذي تصوِّب خطأ فهم كلٌّ من عمر بن الخطاب وابنه عبدالله رضي الله عنهما في موضوع تعذيب الميت ببكاء أهله عليه، موضِّحة جانب الصواب مستخدمةً الحجَّة الواضحة في ذلك، مضيفةً دليلاً آخر يتعلق بسببٍ يبين معنى تعذيب الميِّت ببكاء أهله، فهي تشير إلى أن الرسول ﷺ أوضح للناس مسألة قد تغيب عن أذهانهم، ألا وهي أنَّ المقياس في نجاة الميَّت أو عدم نجاته ليس متعلِّقاً ببكاء أهله عليه، فقد يبكي الأهل والأصدقاء على فقيدهم حزناً على فراقه، وهو مرهون بعمله السيِّئ في قبره، وقد أوضح ذلك حينما مرَّ - كما أخبرت عائشة - على بعض اليهود يبكون امرأة منهم ماتت، فقال: إنهم يبكون عليها، وإنها لتعذَّب في قبرها، وهذا قول من لا ينطق عن الهوى، وهنا يكون الأمرُ جليَّاً في الذهن، بعيداً عن توقُّع الجور حينما يعذَّب إنسان بذنب غيره، فالسؤال الذي يتبادر إلى الذهن حينما نقول: إن الميِّت يعذَّب في قبره ببكاء أهله: ما ذنبه هو، ولماذا يعذَّب بفعل غيره؟

إنَّ توجيه هذا الأمر من قبل صاحبة الحرير الأخضر هو الذي يُبعد هذه الشبهة، وهي تؤكد ذلك بقولها: حسبكم القرآن ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾.

وهذا الأسلوب النقدي الموضوعي نجده في بيانها لمعنى آية السعي بين الصفا والمروة، حيث صوَّبت خطأ فهم ابن اختها عروة ابن الزبير رضي الله عنهم جميعاً، ومن أجمل ما يشار إليه في هذا الموضوع أن عائشة استخدمت في بيان الصواب في موضوع الطواف بين الصفا والمروة، الدليل العلميَّ بذكر سبب نزول الآية، والدليل اللغويَّ الذي أشارت فيه إلى ما يستقيم به المعنى، وما ينسجم به الأسلوب مع دلالته اللغوية، كما استخدمت أسلوب الزَّجر لابن أختها لتؤكد له منذ البداية أنها على علم صحيح بهذا الموضوع.

كيف ذلك؟

قالت له أولاً:

بئس ما قلتَ يا بن أختي!

فهي هنا تلفت نظره إلى أنها على يقين مما تقول حتى يتوجَّه بذهنه كلِّه إلى قولها.

فلقد فهم هو من الآية أنها تعني أن مسألة السعي بين الصفا والمروة اختياريَّة، فلا حرج على من سعى ولا حرج على من لم يسع.

وهذا القول يخالف حكماً شرعياً واضحاً يجعل السعيَ بينهما ركناً من أركان الحج والعمرة.

ولعل هذا الزَّجر المباشر من صاحبة الحرير الأخضر إنما كان بسبب خطورة هذا الفهم الخاطئ.

ثم ماذا؟

دخلت به - بعد الزَّجر - إلى الحجة والبرهان مستخدمةً اللغة وأساليبها الصحيحة، وعائشة كما نعلم حجَّة في هذا المجال.

أخبرته أنه لو كان المراد عدم وجود حرج على من لا يطوف بينهما لكانت الآية: «لا جناح عليه ألاّ يطَّوَّف بهما» وما دامت الآية القرآنية قد جاءت بأسلوبٍ آخر وهو ﴿ **فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا** ﴾ فإن هذا الأسلوب اللغوي ينفي ذلك الفهم الخاطئ لدى عروة ويردُّه.

وبعد هذا مباشرةً يأتي الدليل العلمي بذكر سبب النزول، فذكرت قصة الأنصار في الجاهلية وتحرّجهم من السعي بين الصفا والمروة، ولما جاء الإسلام يقي هذا التحرُّج في نفوسهم، وأخبروا رسول الله عليه الصلاة والسلام بذلك فنزلت الآية الكريمة لنفي ذلك الحرج، ولتأكيد السعي بينهما.

إن عائشة على يقين من علمها بهذا السبب، ولهذا كان أسلوبُها واضحاً في بيانه، ويؤكد هذا ما ورد في صحيح البخاري في كتاب الحج حديث ١٦٤٨، من أن عاصماً سأل أنس بن مالك: أكنتم تكرهون

السعي بين الصفا والمروة، قال: نعم لأنها كانت من شعائر الجاهلية حتى أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ...﴾.

أرأيتم - أيها الأحبة - كيف اكتملت جوانب النقد الموضوعي الهادف في هذا المسألة؟

حتى وعائشة تنتقد فعل أولئك الناس الذين طافوا بالبيت بعد صلاة الفجر ثم جلسوا إلى أحد الوعَّاظ يستمعون، ثم قاموا حين طلعت الشمس يصلُّون، فانتقدت صلاتهم في وقت الكراهية، إنما أخذت عليهم ذلك لأنها صاحبة علمٍ تعرف ما يجوز وما لا يجوز، فالحديث الصحيح يؤكد ذلك كما ورد عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قوله: سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها.

وحينما نقدت ما قاله عبدالله بن عمر في شأن مخاطبة الرسول ﷺ لقتلى قريش في قليب بدرٍ بعد الغزوة، أيَّدت ما ذهبت إليه بآية من كتاب الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾.

وهذا أسلوب العلماء الذين يحملون أمانة العلم ومسؤوليته.

أمَّا في موقفها من سؤال ابن أختها عروة بن الزبير عن الآية القرآنية الكريم ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ فإنَّ الفهم والعلم والدراية باللغة وأساليبها، تتجلَّى واضحةً أمامنا

فتزيدنا ثقةً بعلم صاحبة الحرير الأخضر وفقهها، ورسوخ قدمها في المعرفة بأساليب لغة القرآن الكريم.

واسمحوا لي أن أترك التعليق على هذا الحديث لفضيلة الشيخ د/سعود بن عبدالله الفنيسان، حيث تناوله بالإيضاح في كتابه القيِّم «**مرويات أم المؤمنين عائشة في التفسير**» حينما عرض ما روي عنها من التفسير في سورة يوسف، فقد آثرتُ أن أُورد كلامه هنا لما فيه من إلمامٍ بأطراف هذا الموضوع، يقول:

قرأ ابن كثير ونافع وأبوعمر وابن عامر ﴿قد كُذِّبوا﴾، بضمِّ الكاف وتشديد الذَّال، والمعنى: تيقَّن الرسل أن قومهم قد كذبوهم، ولم يصدقوهم فيما جاؤوا به، فالظن يعني اليقين، ويجوز أنْ يراد بالظن الشك، ويكون المعنى أن الرسل ظنت أن أصحابهم كذَّبوهم لما لحق بالمؤمنين من الضرر والأذى، ويؤيِّده ما رواه بن كثير في تفسيره عن عائشة أنها قالت: لحق الرسل البلاء والضرر حتى ظنوا أن المؤمنين بهم قد كذَّبوهم.

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿قد كُذِبُوا﴾ بتخفيف الذَّال والمعنى: أن المرسَل إليهم ظنُّوا أنهم قد كُذِبوا فيما أخبرتهم به الرسل عن الله من الإيمان به وأمره ونهيه، فالظن يعني الشك أو اليقين ما دامت الضمائر تعود للمرسل إليهم وليست إلى الرسل، وهذا المعنى هو ما يدل عليه الحديث من إنكار عائشة للقراءة بالتخفيف.

والحاصل أن القراءتين بالتشديد والتخفيف ثابتتان، وهما من القراءات السبع، وما روي عن عائشة من الإنكار على ما قرأ بالتخفيف إنَّما هو لتفسير الآية حتى لا يُفهم أنَّ الشك لاحق بالرسل عليهم السلام، وإلا فقد روي عنها القراءة بالتخفيف أيضاً.

أرأيتم - أيها الأحبة - كيف فطنت صاحبة الحرير الأخضر رضي الله عنها إلى هذا الفرق الدِّقيق بين القراءتين، فوجَّهت عروة إلى المعنى الصحيح المراد في هذه الآية الكريمة؟

إنه النقد الموضوعي في أرقى صوره.

الرَّاوِيةُ المفسِّرة

الراوية المفسِّرة

يُجمع العلماء على أنَّ مَنْ يتصدّى لتفسير القرآن الكريم يحتاج إلى أن تكتمل فيه أدوات المفسِّر التي تمكِّنه من المعرفة بمعاني آيات القرآن الكريم، ودلالاتها، وأسباب نزولها، والإلمام بالناسخ والمنسوخ فيها، والمجمل والمفصَّل، والعام والخاص.

وتتمثَّل تلك الأدوات في الإيمان بالقرآن إيماناً كاملاً شاملاً، وإتقان تلاوته وتجويده، وتأمُّل آياته وتدبُّرها، والعمل بمقتضاها، والاطّلاع على ما ورد عن رسول الله ﷺ في بيان معاني آيات القرآن وتفسيره، وما ورد عن علماء الصحابة رضي الله عنهم، وعلماء التابعين ومن تبعهم من العلماء المعتبرين المشهود لهم بالإجادة والإتقان لعلوم القرآن.

أما الأداة المهمة التي لا يصح لعالمٍ كبير أو صغير أن يتناول شيئاً من تفسير القرآن الكريم إلا بها، فهي المعرفة الراسخة باللغة العربية الفصحى - لغة القرآن الكريم -.

إنَّ المفسِّر لا يستطيع - مهما كان علمه - أن يستخرج لنا كنوز القرآن الكريم إذا كانت معرفته بلغة القرآن الكريم ضعيفةً؛ لأنه سيقف عاجزاً أمام كثير من المعاني الدقيقة التي ترتبط بأساليب اللغة وتراكيبها، ومدلولات مفرداتها.

وقد مرَّ بنا شواهد على ذلك فيما قالته عائشة رضي الله عنها عن آية: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾. إنَّ اللغة من أهم أدوات العالم المفسِّر، لا يجوز له أن يدخل إلى عالم القرآن الكريم من بوَّابة التفسير دونها.

وهنا نتساءل؟

هل كانت صاحبة الحرير الأخضر تمتلك من أدوات التفسير ما يؤهِّلها لهذا العمل الجليل؟

سنترك الإجابة عن هذا السؤال لبعض ما ورد عنها من تفسير بعض آيات القرآن الكريم:

١- عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ﴾ [النساء: ٣].

قالت: هي اليتيمة تكون عند الرجل وهو وليُّها فيتزوجها على مالها ويسيء صحبتها فلا يعدل في مالها؛ فليتزوَّج ما طاب له من النساء سواها مثنى وثلاث ورباع.

مسند عائشة ص ٨٧.

٢- عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ

﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٢٧].

قالت: نزلت في المرأة تكون عند الرجل وهو وليُّها، أو لعلَّها أن تكون شريكته في ماله، ويكره أن يزوِّجها فيشركه الرجل في ماله كما شركته، فيعضلها.

مسند عائشة ص ٥٣.

٣- عن عائشة في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

قالت: أُنزلت في المرأة تكون عند الرجل فتطول صحبتها ولعله يكون لها ولد أو لا يكون لها فيريد طلاقها، فتقول: لا تطلِّقني وأمسكني وأنتَ مني في حِلٍّ، فأنزلت هذه الآية في ذلك.

مسند عائشة ص ٨٧

٤- قالت عائشة: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسمَّون الحمس، وكانت سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الاسلام أمر نبيّه أن يأتي عرفات ثم يقف بها، ثم يفيض منها، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

مرويات أم المؤمنين عائشة في التفسير ص ٧٨

٥- قالت عائشة في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي

﴿أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

هو القوم يتدارون في الأمر، يقول هذا: لا والله، ويقول هذا: كلا والله يتدارؤون في الأمر، لا تُعقد عليه قلوبهم.

تفسير ابن كثير ج:١ ص: ٢٦٧

٦- عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان الناس، والرجل يطلِّق امرأته ما شاء الله أن يطلّقها وهي امرأته إذا ارتجعها وهي في العدَّة، وإن طلَّقها مائة مرة أو أكثر حتى قال رجل لامرأته: والله لا أطلقك فتَبينين، ولا آويكِ أبداً، قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك فكلّما همَّتْ عدّتها أن تنقضي راجعتُك، فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة فأخبرتها، فسكتت عائشة حتى جاء الرسول ﷺ فأخبرتْه فسكت النبي عليه الصلاة والسلام حتى نزل القرآن ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾

[البقرة: ٢٢٩].

سنن الترمذي، كتاب الطلاق باب ١٦

٧- قالت عائشة رضي الله عنها: سئل النبي ﷺ: ما السبيل إلى الحج؟ قال: «الزاد والراحلة»

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧].

مرويات أم المؤمنين عائشة في التفسير ص ١٣٨

٨- عن عائشة قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله،

إنك لأحب إليَّ من نفسي وإنك لأحب إليَّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفِعْتَ مع النبيّين، وإني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يردَّ عليه النبي ﷺ شيئاً حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا** ﴾ [النساء: ٦٩].

فتح القدير للشوكاني ج:١ ص: ٤٤٩

٩- عن أبي المهلّب قال: رحلت إلى عائشة في هذه الآية: ﴿ **مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ** ﴾ [النساء: ١٢٣] قالت: هو ما يصيبكم في الدنيا.

وقد قالت عائشة: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية قال: **«إنَّ المؤمن يُؤجر في كل شيء حتى في الغط من الموت»**.

مرويات أم المؤمنين عائشة في التفسير ص ١٧١

١٠- عن عائشة قالت: ما احتُقِرَتْ أعمال أصحاب رسول الله ﷺ حتى نَجَم القراء، طعنوا على عثمان فقالوا قولاً لا نحسن مثله، وقرؤوا قراءةً لا نقرأ مثلها، وصلوا صلاة لا نصلّي مثلها، فلما تذكَّرْتُ، إذن والله ما يقاربون أصحاب رسول الله ﷺ، فإذا أعجبك حُسْنُ قولِ امرئ منهم فقل: ﴿ **اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [التوبة: ١٠٥]. ولا يستخفّنك أحد.

صحيح البخاري، كتاب التوحيد - المقدمة

وهو بزيادةٍ في مرويات أم المؤمنين عائشة في التفسير ص ٢١٠

إنَّ ما روي عن صاحبة الحرير الأخضر رضي الله عنها في تفسير آيات القرآن الكريم لشيء كثير، ونحن هنا نأخذ أمثلةً وشواهد توضِّح لنا الموضوع ولا ندخل في التفاصيل حتى لا نطيل، وإلا فإن علاقة عائشة بتفسير آيات القرآن الكريم تحتاج إلى كتابٍ مستقل، وحينئذٍ سيكون كتاباً كبيراً.

حينما نتأمل ما أوردناه من بعض وقفاتها التفسيرية نشعر بأهميَّة ما تقدِّمه لنا هذه الرَّاوية المفسِّرة الواثقة من علمها ومعرفتها، والمدركة لمسؤولية التصدِّي لتفسير آيات القرآن الكريم، خاصةً وأنها تستند فيما تقدِّمه من فهم متميِّز لكتاب الله، على قربها من معلِّم القرآن الأوَّل محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا ما لم يتحقَّق لغيرها من البشر وهو قُرْبٌ متميِّز؛ لأن عائشة قد استثمرته واستثمرت معه حبَّ رسول الله ﷺ لها، وحرصه على رضاها، وانشراح صدره لمناقشتها، استثمرت ذلك كلَّه في ترسيخ قواعد علمها الغزير، وثقافتها الواسعة لمصلحة الأمة بعامةٍ، والنساء بصفة خاصة.

ونحن - في حقيقة الأمر - لا نبالي أن نكرِّر هذا القول عشرات المرَّات؛ لأننا نضع مثالاً حيَّاً لشخصية المرأة الواعية الناجحة أمام نساء العالم أجمع، وأمام نساء المسلمين خاصةً، في هذا العصر الذي نرى كثيراً من النساء المسلمات يخرجن فيه من إطار الالتزام الديني بحجَّة السَّعي إلى العلم والثقافة، وتحصيل

المعلومات، وهي حجَّة واهيةٌ - أصلاً - ولكنَّ صاحبة الحرير الأخضر تزيد مثل هذه الحجة سقوطاً؛ لأنها كانت أنموذجاً للمرأة المسلمة الملتزمة بدينها أقوى التزامٍ وأحسنه، ومع ذلك فهي صاحبة هذه الشخصية المتميِّزة ثقافة وعلماً وأدباً وروايةً وفتوى.

وقد رأينا في تفسيرها لبعض آيات القرآن كيف تجلِّي المعنى وتوضِّح الموقف فتقرِّبَ منا من معاني آيات كتاب الله ما بَعُد عن أذهاننا، وفهمنا.

فهي تحدثنا عن ظلم بعض أولياء اليتيمات لهنَّ، حيث يكون الرجل وليَّاً ليتيمةٍ بعد موت أبيها فيطمع في الزواج منها لتبقى عنده هي والمال الذي ورثته، ولكنَّ المشكلة تنشأ في كونها ليست بذات جمالٍ يغريه بالزواج منها، فيكون الظلم لها بتعطيلها عن الزواج طمعاً في مالها أو بالزواج منها دون رغبةٍ، فلا يعدل بينها وبين غيرها، وهنا يوجه القرآن الكريم هذا الصنف من البشر إلى ما أباح الله لهم من الزواج مثنى وثلاث ورباع، مبتعدين بذلك عن ظلم اليتيمة وعدم العدل معها.

وهذا السَّرد العائشيّ الواضح يكشف لنا بوضوح معنى الآية الكريمة: ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ...** ﴾.

وهنالك صورة أخرى تتعلَّق بهؤلاء الأولياء واليتامى اللاَّتي يعشن تحت ولايتهم، ألا وهي صورة اليتيمة التي يشاركها الوليُّ في مالها، ولا يرغب في الزواج منها، ولا يزوجها لرجل آخر؛ لأنه لا يريد أن يأتي شريك آخر له في مال اليتيمة، فيحصل الضرَّر لها بذلك، توضح عائشة هذه الصورة في تفسيرها للآية الأخرى: ﴿ **وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ...** ﴾ ..

وفي صورة أخرى توضح لنا عائشة معنى قوله تعالى: ﴿ **وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا...** ﴾ . وتقرِّب لنا المعنى المراد جليَّاً لا غَبَش فيه، وتحدِّد ذلك بقولها: المرأة يطول مكثها مع الرجل وله منها ولد أو ليس له ولد، فيريد طلاقها، وهي تريد البقاء معه، فلا بأس أن تصالحه على البقاء معه دون أن يقسم لها في المبيت أو غيره بحسب ما يتفقان عليه. وفي توضيح معنى هذه الآية بهذا الشرح ما يوقفنا على سماحة الإسلام وعظمة تشريعه، وحرصه على الصلح بين الناس واستقرار الحياة في الأسرة المسلمة.

ولربما مرَّ كثير من المسلمين ممَّن يقرؤون القرآن من غير تدبُّر، بقوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ** ﴾ دون معرفةٍ لسبب هذا الأمر والتوجيه، ولكن عائشة تضع الصورة واضحة

أمامنا بما ذكرته من أن قريشاً في الجاهلية لم يكونوا يقفون مع الناس في عرفة، وإنما يكتفون بالوقوف في مزدلفة تمييزاً لأنفسهم عن الناس، فلما جاء الإسلام أمرهم بأنْ يفيضوا من حيث أفاض الناس، فالناس عند الله سواسية كأسنان المشط لا تفاضل بينهم عند الله إلا بالتقوى.

وهكذا نجد دور صاحبة الحرير الأخضر في التفسير كبيراً، ومعرفتها بأسباب النزول، ومواضع الأحكام الشرعية من الآيات الكريمات عميقةً راسخة حتى أصبح كثير من الناس يرحلون إليها من مسافاتٍ بعيدة يسألونها عن بعض معاني آيات القرآن الكريم، كما حدث لأبي المهلَّب الذي رحل إليها يسألها عن معنى قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾، وقد وجد عندها الجواب الشافي الكافي، فأوضحت له أنَّ ما يصيب الإنسان في الدنيا من التعب والمرض، والحزن، ما صغر من ذلك وما كبر هو الجزاء العاجل في الدنيا الذي يكفِّر ما يقع فيه الإنسان من أعمال السوء والمخالفات فيما دون الذنوب الكبيرة.

فقه النَّص

هذه مسألة في غاية الأهميَّة، وهي من مسائل التفاضل بين العلماء والفقهاء، ألا وهي (فقه النص) فقهاً يؤهِّل صاحبه لأن يستشهد به في الموقع المناسب له وهو ما يُسمِّى (إنزال النصوص في منازلها الصحيحة) حينما نعالج بها واقعاً معاشاً، أو نستشهد بها في قضيَّة معاصرة.

وعائشة رضي الله عنها ذات مقدرة جليَّة في هذا الجانب، فلقد أنكرت ما ذكر بعض الصحابة من تعذيب الميت ببكاء أهله مستشهدة بقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾. وحينما سئلت - رضي الله عنها - عن ولد الزنا هل عليه من إثم أبويه شيء؟ قالت: ليس عليه من خطيئة أبويه شيء، وقرأت قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾.

وفيما ذكرناه - سابقاً - موقف واضح يستحقُّ أن نقف عنده قليلاً؛ لأن فيه فقهاً عائشياً بالواقع مقروناً بدليل قرآني واضح.

فها هي ذي رضي الله عنها - تحدِّثنا عن قومٍ نَجَموا، أي: ظهروا وخرجوا فَجْأةً، وهنا استخدام لغويٌّ متميِّز. فَنَجَم تستخدم في الحديث عن ظهور ما لا يحسن من الأمور، فيقال: نَجَم النفاق

في المدينة لما اشتدَّ عود الإسلام، ونَجمتْ طائفة الخوارج بعد التحكيم، وهكذا.. عائشة رضي الله عنها، تحدِّثنا عن واقعٍ عاشتْه ورأته بعينها، قومٌ يُطلق عليهم (القُرَّاء)، متنطِّعون في أمور الدين، متشدِّدون في الحكم على الناس، فهم يستحقون أنْ تعبِّر عنهم عائشة بأنهم (نجموا): أي خرجوا هكذا بصورة مفاجئة فأتوا بما لم يأت به أهل العلم والورع والفقه، بماذا أتوا؟

طعنوا على عثمان رضي الله عنه، وأساؤوا الكلام فيه، وأثاروا عامة الناس عليه، وقد عبَّرت عن ذلك عائشة بقولها: «فقالوا قولاً لا نحسن مثله، وقرؤوا قراءةً لا نقرأ مثلها، وصلُّوا صلاة لا نصلِّي مثلها».

سبحان الله العظيم! من أين جاء هؤلاء؟ وكيف تجرَّؤوا على هذا الانحراف بحضور أصحاب رسول الله ﷺ، وأين العلم الصحيح عنهم!؟

كل ذلك تلخِّص عائشةُ الإجابةَ عنه بقولها: «حتى نَجَم القَّراء»، وهم الثوّار الغوغاء، كانوا يطلقون على أنفسهم القرَّاء، نعم نَجَموا، فكانت المفاجأة المؤلمة وكانت الفتنة، وكان البلاء.

إن عائشة رضي الله عنها تضع أمامنا صورةً عجيبة غريبة لقومٍ أهل قراءةٍ، وعبادة وصلاةٍ، ولكنها قراءة وعبادة وصلاة تخالف ما عليه عائشة وغيرها من الصحابة رضي الله عنهم.

يبرز هنا سؤال يقول:

هل تتحدَّث صاحبة الحرير الأخضر - رضي الله عنها - عن هذا الأنموذج الذي نراه في هذا العصر من فئاتٍ من الناس خرجوا بالعبادة والتديُّن عن معناهما الصحيح إلى معنىً آخر يشبه ذلك المعنى الذي تتحدَّث عنه عائشة حديثاً صريحاً واضحاً في ذلك الزمن؟!

أقول: نعم، فمن نَجَم على الباطل معتقداً أنه على الحق لا يختلف عن أشباهه في أيِّ زمانٍ ومكان.

إنَّ عائشة ترسم أمامنا صورة واضحة للحلِّ الأمثل في التعامل مع هؤلاء.

ما هو يا ترى؟

تقول: «فلما تذكَّرتُ»، وهي جملة مهمة هنا لا بأس أن أذكر لكم - أيها الأحبة - ما وَقَر في نفسي من أهميتها: إن عائشة فوجئت بأولئك الذين نَجَموا، وبما هم عليه من القراءة والعبادة، وبما يقولون من الأقوال العظام في أفاضل الصحابة الكرام، فهي تقف أمامهم وقفة المفاجأة التي لا تخلو من تَعجُّب واستغراب، ترى أعمالاً صالحة، في الظاهر، ولكنها تسمع أقوالاً لا يتجرأ عليها مؤمن ورعٌ يخاف الله سبحانه وتعالى، وترى استعداداً لأعمالٍ عنيفة

لا تتفق مع مظاهر ذلك التديُّن وتلك العبادة، وهنا تحصل صَدْمة المفاجأة المصحوبة بالهدوء المرتبك، والتأمُّل في هذه الظاهرة التي نَجَمتْ.

هنا تأتي عبارة: «فلمَّا تذكَّرت» في موقعها الصحيح، إنها عبارة الإنسان الذي خرج من صدمة المفاجأة، وبدأ يستعيد علمه وفقهه، بعد أن تأمَّل وتدبَّر، وتذكَّر، وهذا - أيها الأحبة - هو الاستخدام الأمثل والأجمل للغة العربية الغنيَّة، تضع أمامنا صاحبة الحرير الأخضر ألواناً زاهية منه..

«فلما تذكَّرت»، ماذا تذكَّرْتِ يا عائشة؟ كأني بها - رضي الله عنها - لو سمعت هذا السؤال لقالت: تذكرت الدين الحق، تذكرت الرسول ﷺ الذي لازمته منذ التاسعة من عمري حتى لحق بالرفيق الأعلى، تذكرت الصحابة الكرام الذين ربَّاهم محمد عليه الصلاة والسلام، تذكرت الحقَّ الأبلج، والهدى والرَّشاد، تذكرت شرع الله الواضح الذي تركنا منه الرسول ﷺ على المحجَّة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلاَّ هالك.

كأني بعائشة - رضي الله عنها - تقول لنا ذلك.

ثم تقول: لما تذكرت الحقَّ وأهله أيقنت أنَّ أولئك الذين نَجَموا «ما يقاربون أصحاب رسول الله ﷺ»، فإنهم بعيدون عن حقيقة التزام الصحابة، وإخلاص الصحابة، وعلم الصحابة، وورع

الصحابة، بعيدون كلَّ البعد عن الذين قال الرسول ﷺ عنهم فيما رُوي عنه: «أصحابي كالنجوم بأيِّهم اقتديتم اهتديتم» وأين هؤلاء الذين نَجَموا كما تنجم نبتةٌ شوكية غريبة، أين هم من عثمان المبشر بالجنة الذي تستحي منه الملائكة؟ أين هم من الذي جهَّز جيش العسرة بصورة لا تتكرر إلا نادراً في حياة البشر، حتى قال عنه الرسول ﷺ فيما روي عنه: ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم؟.

نعم: تقول عائشة الفقيهة العالمة - رضي الله عنها - لما تذكرت هذه الفرق العظيم بين هؤلاء الذين نَجَموا علينا بباطلهم المرتدي برداء الحقِّ، وبين الصحابة، تبيَّن لي ما هم عليه من السوء والانحراف مهما كان قولهم أو ظاهرهم حسناً.

ولهذا قالت مباشرة - تنصح وتوجِّه - فإذا أعجبك حُسْنُ قول امرئ منهم فقل: ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ** ﴾ ولا يستخفنَّك أحدٌ منهم.

ياله من قولٍ جليل لراوية مفسِّرة عالمة فقيهة!!

هنا فقهٌ واضح لنصٍّ قرآني كريم، فليس أمامنا حيال هؤلاء الذين يحسنون القول في تزيين باطلهم، وتحسين تنطُّعهم وغلوِّهم، إلاَّ أن نقول لهم: اعملوا فسوف تجدون نتائج ما تعملون عندالله، وسوف يطَّلع الرسول ﷺ والمؤمنون على أعمالكم يوم يقوم الأشهاد.

ثم تلخِّص لنا صاحبة الحرير الأخضر - رضي الله عنها نصيحتها العظيمة التي توجهها بعد فترة من التذكُّر والتدبُّر في قولها:

«ولا يستخفنَّك منهم أحد»

كأنني بهذه الجملة تصلح أن تكتب بخطوط عريضة كبيرة وتُعلَّق في أماكن بارزة لتراها أعين المسلمين في هذا الزمن الذي نَجَمتْ فيه طوائف تشبه تلك الطائفة التي تحَّدثتْ عنها صاحبة الحرير الأخضر، إنه فقه التعامل مع نصوص كتابِ الله عز وجل يبرز أمامنا واضحاً في سيرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

أيجوز لمسلم بعد ذلك أن يستخفَّه بريق كاذب خادع وعنده النور الساطع من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؟!

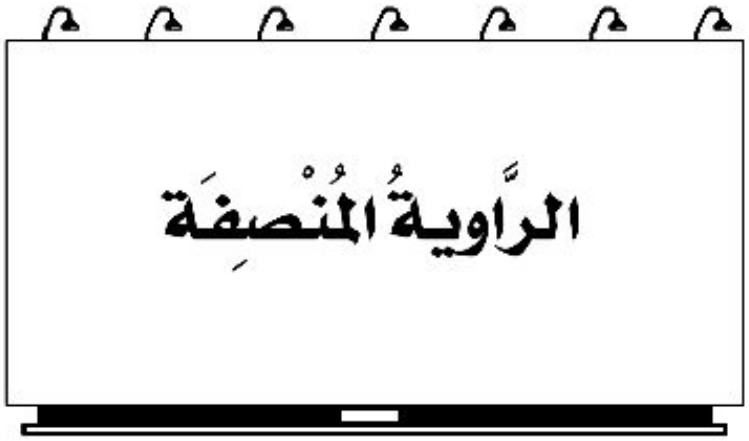
الرَّاوِيةُ المُنْصِفَة

الرَّاويةُ المُنْصِفَة

الإنصاف صفة مهمة تقوم عليها حياة البشر، لأنها مرتبطة بالعدل، والعدل هو أساس الحياة، ولا يمكن لمجتمع أن يعيش حياة مستقرةً دون إنصاف يتعامل به الناس بينهم، ولعلَّ أهم أساس من أسس الإنصاف هو الأساس المتمثِّل في توجيه الرسول ﷺ: «أحب لأخيك ما تحب لنفسك»

إن النفوس التي تحب الإنصاف وتطبقه في الحياة نفوسٌ كبيرة تستحق التقدير.

وصاحبة الحرير الأخضر تعرَّضت لمواقف في حياتها - رضي الله عنها - فيها من الألم والحزن ما لا تصمد له إلا النفوس المطمئنة، والقلوب القويَّة بإيمانها.

فهي زوجة أفضل الخلق الذي تصدَّى برسالته الخالدة لأعتى قوى الكفر والإلحاد، والظلم والطغيان، فلابد أن يكون لها نصيب من الأذى مادامت زوجة محمد ﷺ وأحبَّ نسائه إليه؛ لأن الأعداء لا يتركون وسيلة للإيذاء إلا استخدموها، ومن أسوأ وسائل الإيذاء الحرب النفسية المتعلقة بأهل رسول الله ﷺ والمقربين إليه، ولا شك أن عائشة رضي الله عنها هي أبرز من يمكن أن تُوجَّه إليها الإساءة من بين نساء النبي عليه الصلاة والسلام.

وهي صاحبة المواهب المتعدِّدة التي يعرفها الناس، ولا يخلو صاحب موهبة من الحاسدين والحاقدين عليه.

ولو لم يكن من الأذى الذي نال صاحبة الحرير الأخضر إلا حديث الإفك لكفى، فكيف بأنواع الأذى الأخرى التي يأتي في مقدمتها ما تراه من معاناة زوجها عليه الصلاة والسلام في نشر رسالة الخير ودعوة الناس إلى الحق؟!

إن عائشة مثال من أمثلة الإنصاف البشرية الجليلة التي تستحق الإشادة والتقدير.

١- عن هشام بن عروة عن أبيه أن حسان بن ثابت كان ممن أكثر على عائشة - في حديث الإفك - قال: فسَبَبْتُه فقالت: يا ابن أخي، دَعْه، فإنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ.

صحيح مسلم بشرح النووي، جـ: ١٦، ص: ٤٦

٢- استأذن حسان بن ثابت على عائشة رضي الله عنها، وقد كُفَّ بصره، فأذنتْ له فدخل عليها فأكرمته، فلما خرج عنها، قيل لها: أما هذا في القوم؟ - يعني المتحدثين في الإفك - قالت: هو الذي يقول:

فـــــإنَّ أبـي ووالـده وعـــــرضـي

لعـــرض مـــحـــمـــد منكم وقـــاءُ

بهذا البيت يغفر الله له كلَّ ذنب.

السُمط الثمين للمحب الطبري، تحقيق محمد علي قطب

٣- طافت عائشة بالبيت ثلاثة أسبُع، كلَّما طافت سبعاً صلَّتْ بين الباب والحجر حتى أكملت لكل سَبْعٍ ركعتين، ومعها نسوة فذكرن حسان بن ثابت رضي الله عنه فوقَعْن فيه وسبَبْنَه فقالت: لا تسبُّوه فقد أصابه ما قال الله: ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ١٩]، وقد عَمي، وإني لأرجو أن يدخله الله الجنة بكلمات قالهن لمحمد ﷺ حيث يقول لأبي سفيان بن حارث:

هجوتَ محمداً فأجبت عنه
وعند الله في ذاك الجزاءُ
هجوت محمداً بَرَّاً حنيفاً
رسول الله شيمته الوفاء
فإن أبي ووالده وعرضي
لعرض محمدٍ منكم وقاء
أتهجوه ولست له بكفوءٍ
فشرُّكما لخيركما الفداءُ

تاريخ دمشق لابن عساكر جـ: ٤ ص: ١٣٠

٤- عن عبدالرحمن بن شماسة المهري - رحمه الله - قال: أتيت عائشة رضي الله عنها، أسألها عن شيء، فقالت: من أنت؟ فقلت: رجل من أهل مصر، فقالت: كيف كان صاحبكم لكم في

غزاتكم هذه؟ تقصد عمرو بن العاص رضي الله عنه، فقلت: ما نقمنا منه شيئاً، إن كان ليموت للرجل منا البعير فيعطيه البعير، والعبد فيعطيه العبد، ويحتاج إلى النفقة فيعطيه النفقة، فقالت: أما إنه لا يمنعني الذي فعل في محمد - تقصد أخاها محمد بن أبي بكر الذي قتله معاوية بن خديج أحد رجال عمرو بن العاص - أنْ أخبرك ما سمعت من رسول الله ﷺ، سمعته يقول في بيتي هذا: **«اللهم مَن ولي من أمر أمتي شيئاً فشقَّ عليهم فاشقق عليه، ومن وليَ من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به».**

صحيح مسلم، باب الإمارة، حديث ١٨٢٨

هكذا تكون مواقف تلميذة مدرسة النبوَّة؛ تلك المدرسة التي تعلِّم القيم والأخلاق الفاضلة، والصدق واليقين، والإخلاص لله عز وجلّ أحسن تعليم وأفضله؛ لأنها تستمد تعليماتها ومناهجها من شرع الله المطهَّر، وكتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

إن صاحبة الحرير الأخضر تلميذة ذكيَّة في هذه المدرسة المحمدية، وإذا كان العدل والإنصاف من أهم سمات هذه المدرسة، فإن التلميذة الذكيّة المخلصة ستكون من أفضل من تظهر عليهم تلك السمات من أصحاب محمد ﷺ.

إنها تلميذة ملازمة للمعلِّم في جميع حالاته، وفي إقامته وسفره، وهذه الملازمة من أهم ما يعلِّم القيم والأخلاق، ويحوِّل الأوامر والتشريع إلى واقعٍ معاش.

إنها هي التي أجابت من سألها عن أخلاق الرسول ﷺ بقولها: كان خلقه القرآن، ولا شك أنَّ من كان خلقه القرآن سيكون مثالاً عظيماً للعدل والإنصاف. وهذا العدل والإنصاف منهج قرآني واضح، ولا بأس قبل أن نقف مع أمثلة إنصاف عائشة رضي الله عنها أن نشير إلى دليلٍ قرآني واحدٍ لما نقول.

تعالوا - أيها الأحبة - نتأمل هذه الآيات الثَّلاث من سورة التوبة: ﴿ **الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة: ٩٧ - ٩٩].

يقول ابن كثير في هذه الآيات الثلاث: أخبر تعالى أن في الأعراب كُفَّاراً ومنافقين ومؤمنين.

وفي حديث ابن كثير يتجلَّى موضوع الإنصاف الذي نحن بصدده، فلم يقتصر النصُّ القرآني الكريم على حالة (الكفر أو

النفاق) بل تحدَّث عن القسم الثالث (المؤمن) وأورد أوصافه كاملةً كما أورد أوصاف القسمين السابقين كاملة.

وهذا منهج إسلامي، فنحن لا ننظر إلى أخطاء الإنسان فقط متجاهلين أو متناسين صوابه، وإنما ننصف كلَّ الإنصاف، ونتوخَّى الحقَّ والعدل فيما نقول ونفعل.

وهذا المنهج القراني هو الذي ظهر مطبَّقاً خير تطبيقٍ في حياة الرسول ﷺ وحياة أصحابه الكرام؛ لأنهم جميعاً ينطلقون من قوله تعالى: ﴿ **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾.

هنا يتجلَّى الإنصاف واضحاً، وهذا ما رأيناه فيما رويناه من مواقف الإنصاف عند صاحبة الحرير الأخضر رضي الله تعالى عنها.

كيف ذلك؟

ذكرنا أربعة مواقف؛ ثلاثة منها تتعلَّق بحادثة الإفك وهي من أصعب المواقف التي مرَّت بها صاحبة الحرير الأخضر في حياتها، إن لم تكن أصعبها على الإطلاق.

إنَّ حديث الإفك كان حديث قضيَّة خطيرة، وكان وقعه على قلب عائشة رضي الله عنها وحسِّها قاسياً شديداً.

وإنَّ حديثاً بهذا الحجم، والخطورة لجديرٌ بأن يصرف قلب الإنسان عن كلِّ من خاض فيه صرفاً كاملاً، وخليقٌ بأنْ يغلق أبواب الرِّضا في نفس مَنْ أُوذي به عن كلِّ من شارك فيه بكلمة أو تأييد، ولا شك أن هذا الحديث المؤلم في حالة الإنسان العاديِّ يمكن أن يدعوه إلى الانتقام ممن أسهم فيه قولاً وفعلاً، والإساءة إليه كلَّما حانت الفرصة، ولكنَّ عائشة رضي الله عنها هي تلميذة المدرسة النبويّة التي لا مكان فيها للغلِّ والحقد والانتقام.

أما الموقف الرابع فهو يتعلَّق بمقتل أخي عائشة محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فهو متعلِّق بقضية أخرى مؤلمة لها مساس بقلب عائشة رضي الله عنها ومشاعرها وموقفها النفسي من رجلٍ كان له دور التأييد لقتل أخيها محمد، تلك القتلة الشنيعة حيث أُحرقت جثَّته في جيفة حمار، مع أنها كانت غاضبة على أخيها بسبب موقفه من عثمان.

هنا في هاتين القضيتين اللتين تتعلَّقان بوجدان صاحبة الحرير الأخضر، ظهر الإنصاف عندها مصوِّراً جوهرها الثمين، ومعدنها الأصيل.

كان حسان بن ثابت رضي الله عنه قد خاض مع الخائضين في حديث الإفك، ولم يستطع أن يملك زمام لسانه حينما جرت ألسنة المنافقين وغير المنافقين بقضية الإفك مجرى التهويل والتكرار

والإعادة، والتأويل والتخمين حتى آذى ذلك قلب أفضل الخلق عليه الصلاة والسلام. لقد علمت عائشة علم اليقين أنَّ حسان بن ثابت قد وقع في هذه الحفرة الخطيرة، كما وقع غيره، ولا شك أنها قد وجدت عليه في نفسها وجداً كبيراً كما وجدت على غيره، ولكنَّ السؤال المهم هنا يقول: هل بقي هذا الشعور الغاضب في نفسها طيلة حياتها؟ المواقف الثلاثة التي ذكرناها سابقاً تؤكد أن عائشة تلميذة المدرسة المحمَّدية أكبر من ذلك، وأصفى قلباً، وأسمى شعوراً وأنْقى نفساً، وأسلمَ صدراً، فهي في أكثر من موقف تسمع من يدعو على حسان إذا ذكر، ويسبُّه لأنه خاض مع الخائضين في حديث الإفك، وإنما يفعلون ذلك غضباً لها، وإرضاءً لنفسها، ولكنَّ النفس الكبيرة لا تنزل إلى هذا المستوى من إنكار الفضل، والامتناع من الصفح والعفو عن رجلٍ من الصحابة وقع في الخطأ، ثم عوقب عليه، وأعلن التوبة منه.

إنها لا تسكت وهي تسمع من يدعو على حسان ويسبُّه، بل تزجر من سمعتهم، وتمنعهم من ذلك وتؤكد لهم أن لحسان بن ثابت من الفضل، والمواقف الشعرية المنافحة عن الإسلام ونبيِّ الإسلام، ما يمحو آثار ذلك الخطأ، ويخرج حسَّان من دائرة الإثم المعتمة فيه، فالتوبة تجُبُّ ما قبلها، والمواقف الإيجابيَّة لا تُنسَى.

إن عائشة تذكِّرهم بأن حسان هو الذي قال في ردِّه على شعراء المشركين، مخاطباً واحداً منهم:

والإعادة، والتأويل والتخمين حتى آذى ذلك قلب أفضل الخلق عليه الصلاة والسلام. لقد علمت عائشة علم اليقين أنَّ حسان بن ثابت قد وقع في هذه الحفرة الخطيرة، كما وقع غيره، ولا شك أنها قد وجدت عليه في نفسها وجداً كبيراً كما وجدت على غيره، ولكنَّ السؤال المهم هنا يقول: هل بقي هذا الشعور الغاضب في نفسها طيلة حياتها؟ المواقف الثلاثة التي ذكرناها سابقاً تؤكد أن عائشة تلميذة المدرسة المحمَّدية أكبر من ذلك، وأصفى قلباً، وأسمى شعوراً وأنْقى نفساً، وأسلمَ صدراً، فهي في أكثر من موقف تسمع من يدعو على حسان إذا ذكر، ويسبُّه لأنه خاض مع الخائضين في حديث الإفك، وإنما يفعلون ذلك غضباً لها، وإرضاءً لنفسها، ولكنَّ النفس الكبيرة لا تنزل إلى هذا المستوى من إنكار الفضل، والامتناع من الصفح والعفو عن رجلٍ من الصحابة وقع في الخطأ، ثم عوقب عليه، وأعلن التوبة منه.

إنها لا تسكت وهي تسمع من يدعو على حسان ويسبُّه، بل تزجر من سمعتهم، وتمنعهم من ذلك وتؤكد لهم أن لحسان بن ثابت من الفضل، والمواقف الشعرية المنافحة عن الإسلام ونبيِّ الإسلام، ما يمحو آثار ذلك الخطأ، ويخرج حسَّان من دائرة الإثم المعتمة فيه، فالتوبة تجُبُّ ما قبلها، والمواقف الإيجابيَّة لا تُنسَى.

إن عائشة تذكِّرهم بأن حسان هو الذي قال في ردِّه على شعراء المشركين، مخاطباً واحداً منهم:

فـــــــإنَّ أبـي ووالـده وعـــــــرضـي

لعـــرض مـــحـــمـــدٍ منكم وقـــاء

وهي تؤكد هذا المعنى بقولها: وإني لأرجو أن يدخله الله الجنَّة بكلماته.

يا لهـا من نفسٍ مطمـئنةٍ بالإيمـان، وياله من قلب خـافقٍ بحب الخير والإحسان، خالٍ من الحقد والأضغان.

وأحب أن أشير هنا إلى مسألة تؤكد أن الإنصاف والعدل عند عائشة سمة راسخة في نفسها، فهي جزء من طبيعتها، وليست أمراً مصطنعاً، وهي نابعةٌ من منبع الإيمان بالله، وترجيح مصلحة الدّين الإسلامي على كلِّ مصلحة شخصية كبيرة أو صغيرة.

كيف ذلك؟

لو كـان رضـا عـائشـة عن حسـان نـاتجـاً من مـوقف شـخـصيّ لأشارت إلى ذلك حينما زجرت من دعا عليه وسبَّه، فحسان رضي الله عنه قال قصيدةً عصماء يعتذر فيها ممَّا بدر منه، ويعلن توبته، بل وينكر أن يكون قد خاض في حديث الإفك بالصورة التي نقلت عنه، فلو كانت نظرة عائشةٍ رضي الله عنها نظرةً شخصية لمصلحة شخصية لقالت مدافعة عن حسان:

لا تسبُّوه فقد اعتذر عما بدر منه، وقال فيَّ:

حـــصـــان رزانٌ مـــا تُزَنُّ بـريبـــةٍ

وتصـبح غَـرْثى من لحـوم الغـوافلِ

فـإن كنتُ قـد قُلْتُ الذي قـد ذكـرتمو

فـــلا رفـــعت ســـوطي إليَّ أناملي

لم تذكر عائشة رضي الله عنها هذه الأبيات التي قالها حسان في مدحها ونفى حديث الإفك عنها، مع أنها تعرف ذلك وتعلم أنه من حقِّها إذا ذكرته.

كلاَّ، فإنَّ الأمر عند تلاميذ المدرسة المحمَّدية أكبر من أمور النفس والدنيا، والمصالح الآنيَّة، إنه أمر القرآن الكريم، والدين الإسلامي الحنيف:

لقد رأت عائشة أن الأولى بالذكر في دفاعها عن حسان بن ثابت ما قاله منافحاً عن الرسول ﷺ وعن دين الإسلام، فهو الذي ينتظر منه الأجر، وهو الذي دعا له فيه الرسول ﷺ أن يؤيِّده الله بروح القدس.

والموقف الاخر يتعلَّق بسؤالها الذي وجّهته إلى الرجل المصري عن تعامل القائد الإسلامي الصحابي عمرو بن العاص معهم، توجه السؤال ومازالت حرقتها على قتل أخيها محمد وإحراق جثته تلذِّع قلبها الحنون.

لقد جاء جواب الرجل المصري مشيداً بعمرو بن العاص من حيث رعايته لمصالح الناس ورفقه بهم، وقضاء حاجاتهم، وهنا يظهر الإنصاف العائشيّ المتميِّز.

لو كان الأمر شخصياً لسمعنا منها كلاماً آخر، ولذكرت للرجل المصري شيئاً عن حرقتها لقتل أخيها محمد، حيث ثبت أنها جزعت عليه جزعاً شديداً - برغم أنها كانت قد غضبت منه بسبب موقفه من عثمان - كما أشرنا سابقاً-.

ولكن الأمر أكبر من ذلك كلِّه وأعظم، إنه أمر الدِّين الذي ارتقى بتلك النفوس.

ولذلك تَمَّ الانتصار السريع الحاسم على النفس وميولها حينما قالت مباشرة: أما إنه لا يمنعني الذي فعل بمحمد أخي أن أخبرك ما سمعت من رسول الله ﷺ سمعته في بيتي هذا.

يا للمواقف المشرِّفة الجليلة: هنا أعلنت أنها تجد في نفسها على عمرو بن العاص بسبب قتل أخيها محمد، فهي تؤكد أنَّها لا تملك أمام مشاعر الأخوة والقرابة إلا أن تشعر بالأسى لما حدث له ومع كل ذلك أعلنت أنَّ شعورها الشخصي ينحصر في زاوية صغيرةٍ من النفس تتلاشى أمام مساحة العدل والإنصاف فيها؛ ولذلك فهي ستذكر الحقَّ مؤكِّدة سماعه من رسول الله ﷺ، وهذا الحقّ الذي

ستذكره فيه بشارة لعمرو بن العاص، الذي أكَّد الرجل المصري أنه رفيق بهم مشفق عليهم. نعم إنها راوية منصفة أمينة، تحمل أمانة العلم الذي علَّمها إياه زوجها الحبيب ﷺ، ولهذا قالت بلا تردُّد:

سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللهم من وليَ من أمر أمتي شيئاً فَشَقَّ عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به» يا لها من بشارة عظيمة يستبشر بها عمرو بن العاص، وكلُّ والٍ إلى أن تقوم الساعة مادام صاحب رفقٍ بالناس وشفقة عليهم.

هكذا تكون القلوب المؤمنة بالله عادلةً منصفةً بعيدة عن الجور والحَيْف.

حـديث الإفـك

قالت أم أيوب لزوجها أبي أيوب الأنصارى:

أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟

قال:

نعم، وذلك الكذب.

أكنتِ فاعلةً ذلك يا أمَّ أيوب؟

قالت:

لا – والله – ما كنت لأفعله.

قال:

فعائشة – والله – خيرٌ منك.

يقول ابن كثير في تفسيره:

وقد قيل: إن آية ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ نزلت في ذلك.

مدخل

إنَّ الظلام المتراكم الذي نشرته الجاهلية المنحرفة عن المنهج الحق - قبل الإسلام - قد استطاع أنْ يتسلَّل إلى مكامن نفوس الناس، وزوايا أفئدتهم، حيث تمكَّن من منافذ تفكيرهم، وتغلغل فيها بنسبٍ مختلفة، فهناك من هَيْمَن عليه الظلام، وسرى في عروق قلبه، وشرايين بصره وبصيرته حتى أمسى إنساناً ظلامياً لا يستطيع العيش إلا في أحضان ليل أوهامه الطويل.

وهناك من أوغل في قلبه، ولكنَّه لم يصل إلى كل زواياه ومنافذه، فظلَّ في نفسه مَنْفَذٌ للنور يتسلَّل منه إلى عقله وقلبه، حتى تهيَّأ له - بعد زمنٍ - أنْ يطرد آخر فلول الظلام.

وهناك من ظلَّت منافذ النور في عقله ووجدانه واسعةً فسيحة بالرغم من تراكم الظلام، فرأى ببصره، وأدرك ببصيرته ما لم يستطع أن يدركه أو يراه غيره، من مصادر النور، فكانت استجابته للحق سريعة، وكان تخلُّصه من آثار الظلام ميسوراً.

هكذا كانت أحوال العرب حينما بزغت شمس الإسلام وسرى فجره النقيُّ في عروق هذا الكون الفسيح، منهم من واجهه بعنفٍ وحاربه حتى هلك على ذلك، ومنهم من واجهه حيناً من الدهر، ثم

أدرك معناه وحقيقته فالتحق به، وانتسب إليه، وأصبح من رجاله، ومنهم من فتح قلبه وعقله لنور الإسلام منذ أنْ رأى بزوغ شمسه، وطلوع فجره، فتشبَّع بمبادئه السامية، وترقَّى به في سلَّم الإيمان حتى غدا رمزاً حيَّاً للصدق واليقين.

وهناك فئة أخرى غُلِبَتْ على أمرها، وأصبحت أمام (أمرٍ واقع) لا مفرَّ لها منه، فانتسبتْ إلى الإسلام ظاهراً، وبقي ظلام الجاهلية مسيطراً على منافذ عقول أصحابها، ومسارب مشاعرهم، فكان ذلك الظلام مصدراً للشر في نفوسهم، يتحيَّنون به الفرص للإساءة إلى هذا الدين العظيم، ونبيِّه الكريم عليه الصلاة والسلام، ورجاله المخلصين الأوفياء ونسائه العفيفات الطاهرات - رضي الله عنهم أجمعين -.

لقد كان حديث الإفك مجالاً من مجالات هذا الصِّنف المتشبِّع بظلام الجاهلية، وهو الصنف الذي أسماه القرآن الكريم «المنافقين»، الذين يعيشون حالة التذبذب والتأرجح بين هؤلاء وهؤلاء، الذين صوَّرهم الرسول ﷺ أدقَّ تصوير حينما شبَّههم بالشاة العائرةِ بين الغنمين تميل إلى هذا القطيع تارةً، وتميل إلى الآخر تارةً أخرى، فهي لا تعرف أين تتَّجه، ولا تستطيع أن تحدِّد مكان القطيع الذي تنتمي إليه؛ ولذلك تبقى في حالةٍ من الذهول والاضطراب، والتنقُّل السريع الوَجِل، مع طأطأة الرأس، والالتفات الذي ينمُّ عن حالةٍ عجيبة من الرُّعب وعدم الاستقرار.

إنها صورة دقيقة للمنافق المضطرب الذي لا يثبت على موقفٍ أبداً، ولذلك فهو لا يستقرُّ إلا إذا ثار الغبار، ولا يهدأ إلا إذا عصفت عواصف الظنون والشبهات.

إنَّ الاضطراب هو الذي يوافق طبعه الخبيث ونفسه المتأرجحة، فهو يتربَّص بالمؤمنين الدوائر، حتى إذا وجد مدخلاً إلى إثارة فتنة أسرع إليها، وأشعلها بالأكاذيب والشائعات؛ لأنه لا يستطيع أن يعيش إلا في الأجواء الغائمة التي تنعدم فيها الرؤية.

بهذه النفسيّة المضطربة تعامل المنافقون (المذبذبون) مع قضية الإفك، حيث أشعلوا نارها، وأثاروا غبارها، وكشفوا عن خفايا نفوسهم اللئيمة، وقلوبهم الحاقدة.

لقد تفنَّنوا في عرض هذه القضية عرضاً شيطانياً خبيثاً، أثار الشبهة في أذهان بعض المسلمين، الذين برئتْ نفوسهم من النفاق، ولكنها ضَعُفَتْ - في وقت الشدة - عن معرفة الحق، وخامرها الشك حتى كاد يقتلها.

غبارٌ كثيف..

وشائعات تسري بين الناس كاللَّهب..

وروايات تُحاك..

وليالٍ سوداء مظلمة يعيشها الرسول ﷺ وأصحابه في هذا الجوّ الخانق.

أما صاحبة القضيَّة، الطاهرة النقيَّة، فهي غافلةٌ عما يجري، غائبةٌ عنه، لم يتجرَّأ أحد ممن حولها على رواية القصة الدَّامية لها، وما كانت ترتاب في شيء ولم يكن يخطر ببالها أن يكون ما جرى قد جرى، وأنَّى لها ذلك وهي تعلم من نفسها العفَّة والطهارة؟

شيء واحدة كان يزعجها، ألا وهو ما ترى من فتور عناية حبيبها عليه الصلاة والسلام بها.

لم تكن تدري - حينها - بذلك الألم الدَّفين الذي أشعله المنافقون في نفسه الكريمة ﷺ.

ما أشدَّها من محنة!

ألْسِنة حِدادٌ تنحَت في عرض أحبِّ نساء النبي ﷺ إليه.

وهي لا تعلم بشيء مما يجري...

وهو في حالةٍ شديدةٍ لم يستطع - بَعْدُ - أن يصل فيها إلى قرار.

بأبي وأمي ذلك النبي الصابر المحتسب عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم..

ما كان أشدَّها من فِرْيَةٍ ظالمة، أشعلت لهب الأسى في القلوب النقيَّة الطاهرة.

لقد روت لنا كتب السيرة صوراً من تلك المعاناة العظيمة في مواجهة هذا الحديث الآثم.

أما عائشة - رضي الله عنها - فقد نقلت إلينا ذلك الحدث الأليم بأسلوبٍ أدبي فريد.

إن لغتنا العربية الفصحى لتتألَّق على لسان أمنا (عائشة) - صاحبة الحرير الأخضر - حتى رأيناها مشاعل مضيئة من البلاغة والبيان، كان زيتها مستمداً من «دموع أم المؤمنين» التي لم ترقأ، حتى خمد صوت النفاق الأجَشّ الذي انطلق بحشرجته البغيضة مضخِّماً تلك الفرية الكاذبة.

إذنْ...

فقد وجد المنافقون مجالَهم، وفتح لهم الشيطانُ أبواب الهوى والشك والظنون، وظنوا أنهم قد بلغوا ما أرادوا، وأنهم قد وجدوا السلاح الذي يحطمون به همم الرسول ﷺ وأصحابه.

لقد زيَّن لهم الشيطان أعمالهم، وأضلَّهم عن السبيل، وما علموا - وهم يهرولون في منحدر الفتنة - أنَّ الليل الذي يستر وجوههم الكالحة سينجلي، وأنَّ الشمس ستكشفهم لتراهم أعينُ

الناس في العَراء من غير حُجُبٍ ولا أقنعةٍ تخفي ملامح وجوههم البشعة.

في هذه الأجواء الغائمة ولدت (المعاناة) في قلب أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -.

لقد ضاعف من ألمها أنها لم تعلم عن (فرْيَةِ المنافقين) إلا بعد أنْ قطعوا بها شوطاً بعيداً في دروب الإثارة، والتَّشكيك، وبعد أنْ ذهبوا بها في سراديب الأكاذيب كلَّ مذهب.

لقد كان علمها بالأمر مفاجئاً، مما كان سبباً في تضخيم أثر الصدمة النفسية في قلبها، مع ما كانت تعاني من مرضٍ ألزمها الفراش زمناً غير قصير.

وتضافرت عليها قسوة المفاجأة، ووطأة المرض، مع فتور عناية الرسول ﷺ بها، مع ما تراه - بعد علمها بالخبر - من نظرات الإشفاق والحزن الشديد من أهلها وذويها.

تضافرت عليها هذه العوامل فملأتْ جنبات نفسها ألماً قاسياً كاد يُودي بحياتها لولا الصبر والاحتساب، ثم انفراج الموقف بتزكيةٍ إلهيةٍ من فوق سبع سماوات.

لقد وفَّر هذا الحدث المؤلم - بكل جوانبه وزواياه - جوّاً نفسياً فريداً للإبداع الأدبي...

ولذلك فما إنْ بدأت أمنا الطاهرة صاحبة الحرير الأخضر بسرد قصتها، حتى توافدت عليها العبارات والجمل، وتسابقت إليها الكلمات والصور، متدفِّقة المعاني، مشرقة الأسلوب، بليغة الصورة، عميقة الأثر.

هنا جوٌّ نفسي للإبداع لا نظير له.

وهج معاناة، وغليانُ أسى، وحرقةُ ألم، ممزوجةٌ بفرحٍ غامر وسرور عميق بما منَّ الله به عليها من البراءة والتزكية من فوق سبع سماوات.

إنَّه النصُّ العائشي المتميِّز. الذي:

يحمل من القصيدة وهجها وتدفُّقَها..

ومن القصّة إثارتها وتسلسلَ أحداثها، وتألُّقَ أشخاصها..

ومن الخطبة بلاغتها وقوة عباراتها..

ومن السيرة الذاتية سلامة عرضها، وصدق تجربتها.

إن حديث الإفك نصٌّ أدبي متميِّز يجمع لنا خصائص أسلوب عائشة رضي الله عنها الفنية..

لهذا كان جديراً بوقفة خاصة لإبراز ما فيه من إبداع أدبي كبير.

هيا بنا إلى ذلك الحديث:

نص حديث الإفك

المصدر:

١- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، حديث ٤١٤١.

٢- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تفسير آية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ من سورة النور.

توثيق:

قال ابن كثير: وبيان ذلك - أي حديث الإفك - وارد في الأحاديث الصحيحة، وقال الإمام أحمد: حدثنا عبدالرزاق حدثنا معمر عن الزهري، قال:

أخبرني سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير، وعلقمة بن وقَّاص وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة زوج النبي ﷺ حيث قال لها أهل الإفك ما قالوا فبرَّأها الله تعالى، وكلُّهم قد حدَّثني بطائفةٍ من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض، وأثْبَتَ له اقتصاصاً، وقد وعيتُ عن كلِّ رجلٍ منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة - رضي الله عنها، وبعض حديثهم يصدِّق بعضاً.

ذكروا أنَّ عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله عليه

الصلاة والسلام إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه، فأيتهنَّ خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه.

قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوةٍ غزاها فخرج فيها سهمي، وخرجت معه، وذلك بعدما أُنْزل الحجاب، فأنا أُحمَل في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ الرسول ﷺ من غزوته تلك، وقَفَل، ودنونا من المدينة قافلين، آذَنَ ليلةً بالرحيل، فقمت حين آذَنَ بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلتُ إلى رَحْلي، فلمست صدري، فإذا عِقْدٌ لي من جِزْعِ ظَفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عِقدي، فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرَّهْطُ الذين كانوا يُرْحِلُونني، فاحتملوا هودجي فَرَحَلُوه على بعيري الذي كنت أركب - وهم يحسبون أني فيه - قالت: وكان النساء - إذْ ذاك - - خِفافاً، لم يثقُلْنَ، ولم يَغشَهُنَّ اللحم، إنَّما يأكُلْنَ العُلْقَةَ من الطعام، فلم يستنكر القوم خفَّة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جاريةً حديثة السِّنّ.

فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عِقدي بعدما استمرَّ الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داعٍ أو مجيب، فتيمَّمتُ منزلي الذي كنت فيه وظننت أنهم سيفتقدونني فيرجعون إليَّ، فبينما أنا جالسة في منزلي، غَلَبَتْني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المعطّل السلمي ثم الذّكوانيّ قد عَرَّس من وراء الجيش، فأدلج فأصبح عند منزلي،

فرأى سواد إنسانٍ نائم، فأتاني فعرفني حين رآني - وكان قد رآني قبل الحجاب - فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمَّرتُ وجهي بجلبابي - والله ما كلَّمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة - غيرَ استرجاعه حين أناخ راحلته، فوطئَ على يدها فركبتُها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا مُوغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولَّى كِبْرَه عبدالله ابن أبيّ بن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمناها شهراً، والناس يُفيضون في قول أصحاب الإفك...

ولا أشعر بشيء من ذلك.

وهو يُريبني في وجعي أني لا أرى من رسول الله ﷺ اللُّطْفَ الذي كنت أرى منه حين أشتكي.

إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلِّم ثم يقول: «كيف تيكم»، فذلك الذي يُريبني، ولا أشعر بالشرّ. حتى إذا خرجتُ بعدما نَقِهْتُ، وخرجت معي أمُّ مِسْطح قِبَلَ المناصع - وهو متبرَّزُنا، وكنَّا لا نخرج إلاَّ ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن تُتَّخذَ الكُنُفُ قريباً من بيوتنا، فانطلقت أنا وأمّ مسطح وهي بنت أبي رُهْم بن المطّلب بن عبدالمطلب بن عبدمناف، وأمُّها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر ابن الصديق، وابنُها مِسْطح بن أُثاثة بن عبَّاد بن عبدالمطلب.

فأقبلت أنا وابنة أبي رُهم - أم مسطح - قِبَلَ بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرتْ أمُّ مِسطحٍ في مِرْطها، فقالت: تَعِسَ مسطح، فقلت لها: بِئْسَ ما قُلْتِ، أتسبّين رجلاً شهد بدراً؟ فقالت: أيْ هَنَتاه، أو لم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟، قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً على مرضي، فلما رجعتُ إلى بيتي دَخَلَ عليَّ رسول الله ﷺ، فسلَّم ثم قال: «كيف تيكم»؟ فقلت له: أتأذن لي أنْ آتي أبويَّ؟

قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما فأَذِنَ لي رسول الله ﷺ، فجئْتُ أبويَّ، فقلت لأمي: يا أمَّتاه، ماذا يتحدَّث الناس به؟ فقالت: أيْ بُنيَّة، هوِّني عليك، فوالله لَقلَّما كانت امرأة قَطُّ وَضيئة عند رجلٍ يحبُّها، ولها ضرائر إلاَّ أكثرن عليها، فقلت: سبحان الله! أوقد تحدَّث الناسُ بهذا؟.

قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنومٍ، ثم أصبحت أبكي.

قالت: فدعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد - حين استَلْبَثَ الوحي - يسألهما، ويستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على الرسول ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الودّ.

فقال أسامة: يا رسول الله، أهلُك، ولا نعلم إلا خيراً. وأما عليّ ابن أبي طالب فقال: يا رسول الله، لم يضيِّق الله عليك، النساء غيرها كثير، وإنْ تسأل الجارية تصدقك الخبر.

قالت: فدعا الرسول ﷺ بَريرة، فقال: أيْ بَريرة، هل رأيت من شيء يُريبك من عائشة؟، فقالت له بَريرة: والذي بعثك بالحق، إنْ رأيت عليها أمراً قَطُّ أغمِصُه عليها أكثرَ من أنها جارية حديثة السِّنّ تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله.

فقام الرسول ﷺ من يومه، فاستعذر من عبدالله بن أُبيّ بن سلول، قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: يا معشر المسلمين، من يُعذِرُني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلاَّ خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلاَّ معي.

فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إنْ كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج، أمرتَنا ففعلنا بأمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة، وهو سيِّد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكنْ احتملتْه الحميّة، فقال لسعد بن معاذ: كذبْتَ - لعمر الله - لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رَهْطِك ما أحببْتَ أن يُقتل، فقام أُسيد بن حُضير، وهو ابن

عمٌّ سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبتَ - لعمر الله - لنقتلنَّه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

فتثاوَر الحيَّان؛ الأوس والخزرج حتى همُّوا أنْ يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر.

فلم يزل رسول الله عليه الصلاة والسلام يخفِّضهم حتى سكتوا، وسكت رسول الله ﷺ.

قالت: وبكيت يومي ذلك لا يَرْقَأُ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنَّان أن البكاء فالقٌ كبدي.

قات: فبينما هما جالسان عندي، وأنا أبكي، إذ استأذنتْ عليَّ امرأة من الأنصار، فأذِنْتُ لها فجلستْ تبكي معي، فبينَا نحن على ذلك إذْ دخل علينا رسول الله ﷺ، فسلَّم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، ولقد لَبِثْتُ شهراً لا يُوحى إليه في شأني شيء.

قالت: فتشهَّد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإنْ كنتِ بريئةً فسيبرِّئُك الله، وإنْ كنتِ أَلْمَمْتِ بذنبٍ فاستغفري الله وتوبي إليه، فإنَّ العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه.

قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالتَه، قَلَصَ دمعي حتى ما أحسّ منه قطرة.

فقلت لأبي: أجب رسول الله فيما قال.

فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

فقلت لأمي: أجيبي رسول الله.

فقالت: والله، ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

قالت: فقلت - وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن-:

إني والله لقد علمت، لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقرَّ في أنفسكم، وصدَّقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة - والله يعلم أني بريئة - لا تصدقونني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ - والله يعلم أني منه بريئة - لَتصدِّقُّني، فوالله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾.

قالت: ثم تحوَّلتُ فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا - والله - أعلم حينئذٍ أني بريئة، وأنَّ الله تعالى مبرِّئي ببراءتي، ولكنْ - والله - ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحيٌ يُتْلَى، ولَشأني في نفسي كان أحقرَ من أن يتكلَّم الله فيَّ بأمرٍ يُتلى، ولكن كنت أرجو أنْ يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرِّئني الله بها.

قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيِّه، فأخذه ما كان يأخذه من

البُرَحاء عند الوحي حتى إنَّه ليتحدَّر منه مثل الجُمان من العَرَق وهو في يومٍ شاتٍ من ثِقَل القول الذي أُنزل عليه.

قالت: فسُريَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أوَّل كلمة تكلَّم بها أنْ قال: أبشري يا عائشة، أمَّا الله - عز وجل - فقد برَّأكِ.

قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل هو الذي أنزل براءتي.

وأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ العشر الآيات كلها.

فلما أنزل الله سبحانه وتعالى هذا في براءتي، قال أبو بكر رضي الله عنه وكان ينفق على مِسْطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: - والله - لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال.

فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ... إلى قوله: أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال أبو بكر: بلى والله، إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها عنه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش زوج رسول الله عن أمري، فقال: يا زينب ماذا علمتِ أو رأيت؟

فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، واللهِ ما علمت إلا خيراً، قالت عائشة: وهي التي كانت تُساميني من أزواج النبيّ ﷺ، فعصمها الله تعالى بالورع، وطفقت أختها «حمنة بنت جحش» تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك.

وقفة مع مقاطع من رواياتٍ أخرى

١- مقطع خروج عائشة مع أم مسطح.

ورد في رواية أخرى عن الإمام أحمد بالعبارة التالية: [فلما كان مساء ذلك اليوم خرجتُ لبعض حاجتي، ومعي أم مسطح، فعثرْتُ فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: أيْ أُمّ، تسبّين ابنك؟، فسكتتْ.

ثم عثرت الثانية فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: أيْ أم، تسبّين ابنك؟، ثم عثرت الثالثة فقالت: تعس مِسْطح، فانتهرْتُها، فقالت: والله ما أسبُّه إلاّ فيك.

فقلت: في أيِّ شأنٍ؟

قالت عائشة: فبقرَتْ لي الحديث.

فقلتُ: وقد كان هذا؟ قالت: نعم والله.

فرجعت إلى بيتي، كأنّ الذي خرجت له لا أجد منه قليلاً ولا كثيراً].

٢- مقطع سؤال الرسول ﷺ جارية عائشة عنها ورد في رواية البخاري بالعبارة التالية:

[قالت عائشة: ولقد جاء الرسول ﷺ بيتي فسأل عني خادمي، فقالت: يا رسول الله، لا والله ما علمت عليها عيباً، إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها أو عجينها.

وانتهرها بعض أصحابه، فقال: اصدقي رسول الله ﷺ فقالت: سبحان الله، والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر].

٣- مقطع إجابة عائشة رسول الله ﷺ على كلامه بحضور أبويها.

ورد في البخاري بالعبارة التالية:

[قالت عائشة: فلما لم يجيباه - تقصد أبويها -، تشهَّدْتُ، فحمدت الله وأثنيت عليه بما هو أهله ثم قلت: أما بعد، فوالله إنْ قلت لكم: إني لم أفعل - والله عز وجل يشهد إني لصادقة - ما ذاك بنافعي عندكم، لقد تكلَّمتم به، وأُشْرِبَتْه قلوبُكم. وإنْ قلت لكم: إني قد فعلت - والله يعلم أني لم أفعل - لتقولُنَّ قد باءت به على نفسها، وإني - والله - ما أجد لي ولكم مثلاً - والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه - إلا أبا يوسف حين قال: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ**﴾.

وأنزل الله على رسوله ﷺ من ساعته، فسكتنا فرُفع عنه، وإني لأتبيَّن السرورَ في وجهه وهو يمسح جبينه، ويقول: أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك.

قالت: وكنت أشدَّ ما كنت غضباً، فقال لي أبوايَ: قومي إليه.

فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمدكما، ولكنْ أحمد الله الذي أنزل براءتي، لقد سمعتموه، فما أنكرتموه ولا غيَّرتموه].

وقفة مع حديث الإفك

حديث الإفك برواية صاحبة الحرير الأخضر نصٌّ أدبي جليل القدر، رفيع المكانة في مراتب البلاغة والبيان، فهو: جميل العبارة، مشرق البيان، بديع التصوير، متماسك الأجزاء، متكامل الجوانب حديث أدبي يعجب، ويُمْتع، ويُرضي كلَّ متذوِّق للأدب الرَّاقي.

إنه «قصَّة متكاملة» تتوافر فيها جميع عناصر القصة من أحداث مثيرة، وشخصيات متعدّدة، وحوار، وحبكة قصصية، وعقدةٍ ظلَّتْ تشدّ الانتباه شداً قوياً حتى كان الحلُّ بَلْسماً شافياً للصدر.

ولعل من المفيد هنا - تحاشياً للإطالة - أن أحدِّد معالم الإبداع والجمال في قصّة الإفك، من خلال النقاط التالية:

١- الصدق في الرواية، والوضوح في طرح جوانب القضية، دون تغيير أو تبديل، أو محاولة لتحويل النّص إلى امتياز شخصي خاص.

إنَّ الصدق يواجهنا منذ قراءتنا لأول كلمة في حديث الإفك، إلى آخر كلمةٍ فيه، وكيف لا يكون حديثاً صادقاً، وقد سمعه الصحابة وتأثَّروا به، ووافقوا صاحبته على كلِّ ما أوردت فيه؟

٢- دقَّة الوصف، وتسلسل الأحداث، وجمال السرد. ومن الأمثلة على ذلك المقطع الأوَّل من القصة حيث قالت عائشة:

«فسرنا حتى إذا فرغ الرسول ﷺ من غزوته تلك، وقَفَل، ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلةً بالرَّحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني، أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه».

أرأيتم هذا التسلسل الجميل، وهذا الوصف الدقيق، وهذا الانسياب الذي يسرقنا من أنفسنا ونحن نتابعه دون عناء؟ إنها ترسم لنا صورة دقيقة لبداية القصة، لا نملك معها إلا أن نتعلَّق بمعرفة ما جرى بعد ذلك.

٣- تحقيق عنصر الإثارة وشدَّة الانتباه. ولقد امتلأ هذا النص الأدبي بعناصر إثارةٍ كثيرة، تشدّ الانتباه وتثير الاهتمام.

فهي تصوِّر فقدها لِعقدها ورجوعها للبحث عنه، وطول إقامتها باحثة عنه، ثم تصوِّر ما جرى بعدها من حمل هودجها خالياً منها على البعير، وانطلاق الجيش، ثم تصوِّر لنا شعورها حينما عادت إلى الموقع تصويراً مثيراً مؤثِّراً تقول: فوجدت عقدي بعدما استمرَّ الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيب...

وهنا يتحقَّق عنصر الإثارة الأوَّل الذي نقل القصة إلى عقدتها الكبرى.

٤- الربط القوي بين أجزاء الحدث وعناصره ومواقفه ربطاً لا يتيح لقارئ أو سامع أن ينشغل عنه، أو يفتقد شيئاً من عناصره.

لقد أصبح حديث الإفك كُتلةً واحدةً لا تنفصم عُراها، ولا تتفرق أجزاؤها.

٥- مراعاة التسلسل الزماني والمكاني حتى أصبح المستمع أو القارئ معايشاً للحدث، وكأنه واحدٌ ممن رأوه، وحضروا أحداثه.

٦- الدِّقة في اختيار العبارات والجمل الاحترازية التي توضِّح، وترسِّخ المعلومة، وتزيل ما قد يحدث من غَبَش الفهم الخاطئ.

فهي تتحدث عن حملهم لهودجها ظانين أنها فيه، ثم تدرك بحسّها البياني المرهف أن سؤالاً قد ينشأ في نفس المستمع: كيف يحدث ذلك، أليسوا قادرين على التفريق بين خفَّة الهودج وثقله؟!

ولذلك تضع الاحتراز من عندها، وتضيف لنا معلومةً عن حالة النساء في ذلك الزمن فتقول:

«وكان النساء إذْ ذاك خفافاً لم يثقُلْنَ ولم يغشَهُنَّ اللحم، إنما يأكُلْن العُلْقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه».

هنا يظهر أثر الحسّ البياني المرهف، فقد أراحت عائشة كلَّ من قد ينشأ عندهم ذلك السؤال.

ومثل ذلك قولها أكثر من مرَّة «وكنت جارية حديثة السنِّ» لتنبِّه المستمع أو القارئ إلى هذه الناحية كلَّما شطح به خياله بعيداً في تصوُّر ما جرى، وهو المعنى الذي نقلته عائشة عن جاريتها بريرة حين قالت: «تنام عن عجين أهلها فتأتي الدَّاجن فتأكله».

ومن الجمل الاحترازية المضيئة قولها عن سعد بن عبادة الذي غضب وقال كلاماً قاسياً لسعد بن معاذ:

«وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحميَّة»

إن عائشة تسرد قصة حدث كبير له مساس بالعقيدة، وسعد ابن عبادة، كان يدافع - في سَورة غضبه - عن المنافق عبدالله بن أبيّ بن سلول، فكان لابد لعائشة الأديبة البليغة أن تضع هذا الاحتراز المضيء حتى لا يظنّ ظانٌّ أنَّ سعداً كان ينافح عن المنافقين، وإنما كان يتكلَّم حميَّة عن قومه الخزرج.

وكذلك قولها حينما ذكرت مجيء صفوان بن المعطل بعد الجيش وما حدث له من المفاجأة حين رآها فعرفها: «وكان قد رآني قبل الحجاب» وهو احتراز جميل مهم في هذا الموضوع.

ألم أقل لكم: إننا أمام قامة سامقة في البلاغة والبيان؟

٧- نصاعة العبارة، وجمال الصور البلاغية. وصَاحبة الحرير الأخضر مدرسةٌ متكاملة في هذا الجانب، وإليكم البيان تأملوا معي العبارات المختارة:

«آذن بالرحيل، دنونا قافلين، فالتمست عقدي، وأقبل الرَّهط، كانو يُرْحِلُونني، يأكلن العُلْقة من الطعام - العُلْقة هي الطعام القليل الذي فيه بلاغ ولا يُشْبِع -، استمرَّ الجيش، فيمَّمتُ منزلي، فأدْلج، سواد إنسان، فخمَّرت وجهي، موغرين في نحر الظهيرة - أَوْغر: تعمَّق -، والناس يُفيضون، يُريبني في وجعي، بعدما نَقِهْتُ، وهو متبرَّزُنا، لا يَرْقَأ لي دمع، استلبث الوحي، فلم يزل الرسول ﷺ يخفِّضهم،، فالقٌ كبدي، قَلَص دمعي - قلص: جمد وتوقَّف -، ما رَامَ رسول الله منزله، وكانت تساميني - تنافسني -، فبقَرتْ لي الحديث - أي حدثتني به دفعة واحدة، بقر الشيء بمعنى شقَّه كاملاً وأخرج ما فيه -.

هذه العبارات وغيرها لا يمكن أن ينتقيها في حديثه بهذه الدِّقة إلا من كان له مثل مقدرة عائشة رضي الله عنها اللغوية.

أما الصور البلاغية فهي طَوْعُ بنانها، كأنما هي مُخبَّأةٌ تحت لسانها.

تأملوا معي الصور التالية:

- فالتمست عِقدي فحبسَني ابتغاؤه «استعارة».
- لم يغشَهُنَّ اللحم «كناية عن النُّحول».
- وليس بها داعٍ ولا مجيب «كناية عن فراغ المكان».

- غلبتني عيناي فنمت.

أقول: لله هاتان العينان اللتان تغلبان صاحبَهما.

- بعدما نزلوا مُوغرين في نحر الظهيرة

تخيَّلوا معي الظهيرة التي لها نَحْرٌ أوغروا فيه، أي دخلوا في أعماقه.

- لا أكتحل بنوم.
- حتى إنه ليتحدَّر منه مثل الجُمَان من العرق.
- فرجعت كأن الذي خرجت له لا أجد منه قليلاً ولا كثيراً «كناية عن جفاف عروقها لهول المفاجأة».
- لقد تكلَّمتم به وأُشرِبتْه قلوبكم.

٨- الموازنة الناجحة بين الموضوعية في بيان الحقِّ، وسرد الأحداث، وتصوير الأشخاص، دون تمكين العاطفة من التأثير السلبي في ذلك.

وبين الوهج العاطفي القويّ الذي أحدثه الألم من آثار حديث الإفك.

لقد استطاعت عائشة أن تحافظ على أصل القصة مع مدِّها الخيطَ الوجدانيَّ الشجيَّ في عبارات الحديث وجمله كلها، حتى أصبح التعاطف مع عائشة سمةَ كلِّ من يقرأ قصتها دون إخلالٍ بميزان العدل والإنصاف.

إنَّ براعة صاحبة الحرير الأخضر البيانية، وثروتها اللغوية الغنية هي التي جعلت حديثها حافلاً بالأحكام الشرعية، وأخبار الأماكن والأشخاص والمواقف، حتى إنَّه ليغني قارئه عن كلِّ ما عداه فيما يتعلَّق بتلك القضية التي هزَّت جنبات المدينة كلها.

مع كونه حديثاً عاطفياً مؤثراً تأثيراً كبيراً في قلوب الذين يتأملونه، ويستوعبون ما فيه من المعلومات والدِّلالات.

إنَّ قولها: أصبحت أبكي، حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، وكنت حديثة السنّ، وغيرها من العبارات والجمل لتملأ قلوبنا رحمةً وإشفاقاً، مع أنها لم تؤثِّر في أي حدث أو موقف أو شخص تأثيراً سلبياً.

٩- كثرة المعلومات داخل حديث الإفك، وتنوُّعها وصحَّتها. فهو يشتمل على حديثٍ عن غزوة من الغزوات، وهي غزوة المريسيع (غزوة بني المصطلق) التي وقعت سنة ستٍ من الهجرة، وقيل سنة أربعٍ من الهجرة.

ويشتمل على معلومات عن طريقة سيرهم في الغزو، وعن إقراع الرسول ﷺ بين نسائه حينما يخرج لغزو أو لغيره، وعن حمل النساء في الهوادج، وعن وجود أشخاص يسيرون خلف الجيش للمتابعة، وتكون فائدة متابعتهم كبيرة كما حصل في موضوع

عائشة، فلولا وجود صفوان بن المعطّل للقيام بهذا الغرض لما علم عنها أحد إلا بعد فترة قد تكون طويلة.

والحديث يشتمل أيضاً على وصف خطورة دور المنافقين في الأمة، وعلى خطورة إثارة النَّعرات القبلية كما حدث في الخلاف بين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، ثم بين الأوس والخزرج حتى كادوا يتقاتلون في المسجد، والحديث يشتمل على وصف لجوانب من الحياة الاجتماعية والأسرية في عهد الرسول ﷺ، وعلى تصويرٍ لحكمة الرسول عليه الصلاة والسلام وصبره واحتسابه.

وفيه وصفٌ لحالة نزول الوحي على رسول الله، وماذا يصيبه حينما يُوحى إليه.

معلومات كثيرة غزيرة، يستطيع من يتأمَّلها ويبحث عن تفاصيلها في كتب السيرة أن يحصل على علم غزير.

١٠- بيان الآثار السلبية الكبيرة والآثار الإيجابية لقصة الإفك. فهي قصة مهمة كشفت خطورة سوء الظن، والغيبة والنميمة، ونبَّهت إلى وجوب الحذر من دور المنافقين المشبوه، القائم على إثارة الفتنة، والكذب، والترويج للأباطيل، كما كشفت القصة عن وجود أصحاب القلوب المريضة في كل زمان ومكان، وفي كل مجتمع مهما كان صحيحاً سليماً.

ومقابل ذلك كشفت قصة الإفك عن سلامة صدور أصحاب رسول الله، وحسن ظنهم بنبيِّهم وأهل بيته، وأوضحت أهمية الصبر، والحكمة والاستعانة بالله سبحانه وتعالى، وانتظار الفرج منه.

وقد أشارت عائشة إلى ذلك بوضوح حينما ذكرت أنها لم تكن تطمح إلى أن ينزل فيها قرآن يُتلى، وإنما كانت تتوقَّع أن يرى الرسول ﷺ رؤيا في منامه تُثبت براءتها.

١١- الدِّقة في رسم الأشخاص وتحديد مواقفهم، والتعريف بهم، وهذا دليل على علم عائشة وسعة اطّلاعها، وهذا - في حقيقة الأمر - من أعاجيبها رضي الله عنها، فقد كان عمرها لا يتجاوز الرابعة عشرة حين جرى حديث الإفك بين الناس، وهذا ما يجب أن يتنبَّه إليه كل من يقرأ عن عائشة وعلمها وروايتها وأدبها، ومواقفها مع رسول الله ﷺ، فلا بد أن نتذكَّر دائماً أن رسول الله ﷺ قد مات وعمرها ثمانية عشر عاماً، ومعنى ذلك أنَّ كلَّ ما شاركت به من علم وأدب ورواية، وكلَّ ما كان منها من تعاملٍ كبيرٍ مع سيِّد ولد آدم عليه الصلاة والسلام حتى أصبحت منه بالمكانة التي نعلم، إنما كان وهي في سنِّ الصِّبا والشباب المبكِّر الذي يُعَدُّ في زماننا هذا (سنَّ مراهقة). نعم، لقد رسمت لنا صاحبة الحرير الأخضر شخوص قصتها رسماً دقيقاً وفق ما تقتضيه حاجة القصة، فقد عرفنا من هو

صفوان بن المعطل الذي جرى حوله حديث الإفك، وعرفنا من هو أسامة بن زيد، وسعد بن عبادة، ومن هي أم مسطح، ومن هو ابنها مسطح بن أثاثة، وعرفنا من هو أسيد بن حضير، ومن هو عبدالله بن أُبيّ بن سلول، وما علاقة أبي بكر الصديق بمسطح، ومن هي زينب بنت جحش، وماذا كان دور أختها حمنة، وماذا كان دور جارية عائشة (بَريرة).

شخوص عرفناهم معرفةً تُؤهِّلنا للتفاعل معهم، وكأننا نرى ونسمع.

وأخيراً...

فإنَّ حديث الإفك ينمُّ عن قدرة بيانية عجيبة، ويعبِّر عن فهم ووعي وإدراك، وفقهٍ بما جرى، وعلمٍ غزيرٍ، وإلمامٍ كبير بأطراف الموضوع كلِّها، ولذلك صار هذا الحديث أنموذجاً بلاغياً فريداً، فيه من اللَّمسات الفنّية، والإشارات الدقيقة، والتلوين الأسلوبي البديع ما يرقى به إلى مصافِّ النصوص الأدبية الفريدة.

إنه محكم النسج، متكامل الصياغة، سَلِسُ الأسلوب، ففيه الاستفهام المثير، والتعجُّب المناسب، والاندهاش والإدهاش، وفيه التموُّج العاطفي الجميل، وفيه الجمل الاعتراضية المهمة جداً للاحتراز، وإزالة شبهة الفهم الخاطئ.

وفيه أساليب الاستعارة والتشبيه والكناية، وعبارات الإيحاء التي تدلُّ على دراية كبيرة بالطرق المُثْلَى لاستخدام الكلمة أو الجملة.

وفيه الأدب الرَّاقي مع الذين تحدَّثوا، أو أشاروا بما قد يُفهم منه ميلهم إلى التصديق بذلك الحديث، فهي تؤكد لنا أن حمنة بنت جحش - رضي الله عنها - وقعت في هذا الحديث، ولكنها لم تقل في شأنها كلمة نابية أبداً، وإنما قالت - بعد مدحها لزينب بنت جحش التي منعها ورعها من الحديث -: وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هَلَك.

وكأني بعائشة رضي الله عنها تقدِّم لنا عذراً بطريقة خفيَّة يجعلنا نقلِّل من تَثْريبنا على حمنة، فهي لم تقل ما قالت لفسادٍ في دينها، وإنما كان بسبب عاطفتها التي أعمتها عن الحق فأصبحت «تحارب لأختها زينب» بحديث الإفك، خاصةً وأن عائشة ذكرت قبل ذلك أن زينب هي التي كانت تنافسها في المكانة عند رسول الله ﷺ.

وقد ورد في الحديث ما يؤكد هذا، فهذا ابن جرير الطبري يروي في تفسيره أن عائشة وزينب رضي الله عنهما تفاخرتا، فقالت زينب: أنا التي نزل تزويجي من السماء، وقالت عائشة: أنا التي نزل عذري في كتاب الله حين حملني صفوان بن المعطَّل على الراحلة.

فقالت زينب: يا عائشة، ما قلتِ حين ركبتها؟

قالت عائشة: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل.

قال زينب: لقد قلتِ كلمة المؤمنين.

يا لروعةِ هذا الحوار، وبالعظمة هذه النفوس! إنها النفوس التي تتلمذت على معلِّم البشرية محمد بن عبدالله ﷺ.

أرأيتم - أيها الأحبة - جمالَ ورقَّةَ وعظَمَةَ هذا الحوار القصير بين عائشة وزينب؟

أرأيتم أهمية الورع والتقوى في الرُّقيِّ بالنفوس؟ بدأ الحوار بالمنافسة، ولكنها منافسة راقية شريفة؛ لأن كلَّ واحدةٍ منهما كانت تفاخر الأخرى بعلاقتها بربِّها ومكانتها عنده، ولم تفاخر بمالٍ ولا لباسٍ ولا جاهٍ ولا مظهرٍ من مظاهر الدنيا.

ولهذا سَرَعان ما انصرفت المفاخرة إلى سؤال لطيف ظريف وجّهته زينب إلى عائشة، تسألها عما قالت حينما ركبت جمل صفوان بن المعطِّل.

«حسبي الله ونعم الوكيل».

«إنها كلمة المؤمنين»

أقول:

هذه المنافسة الشريفة بين صاحبة الحرير الأخضر وزينب بنت جحش هي التي جعلت حَمنَة تحارب لأختها في قصّة الإفك.

عذراً - أيها الأحبة - فسوف أترك لكم فرصة الإيغال في أعماق هذا الحديث العجيب فهو مليء بالجواهر واللآلئ التي لا تُقدَّر بثمن.

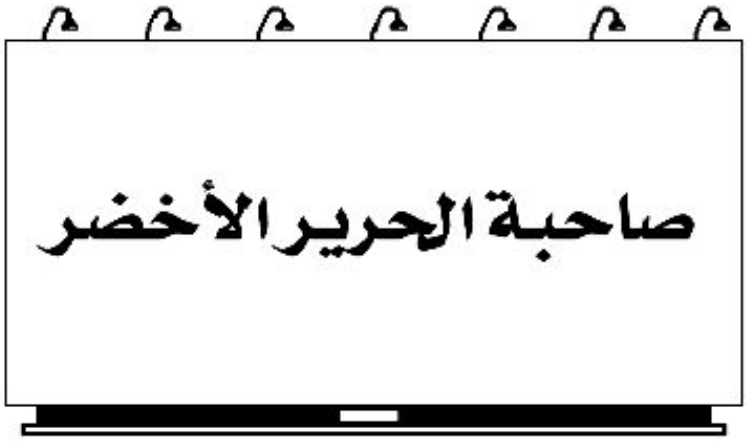
صاحبة الحرير الأخضر

منوَّعات

- أشهر زوجات النبي ﷺ، أقربهن إليه وأحبهنَّ إلى قلبه الطاهر الكريم.
- تزوجها الرسول ﷺ قبل الهجرة بسنتين، وقيل بثلاث سنوات، وعمرها ست سنوات، أو سبع ولم يدخل بها إلا وهي بنت تسع سنوات بالمدينة.
- عرض جبريل عليه السلام صورتها في سَرَقةٍ حرير - خرقة حرير خضراء - في المنام لمَّا توفيت خديجة، وقال: هذه زوجتك في الدنيا والآخرة.
- كنَّاها بأمِّ عبدالله، لما ولد عبدالله بن الزبير.
- قال ﷺ: والله ما نزل عليَّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكنَّ غيرها.
- قال لها الرسول ﷺ يوماً: يا عائشُ، هذا جبريل يُقرئك السلام، فقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، تَرى ما لا أرى.
- قال عطاء بن أبي رَباح: كانت عائشة من أفقه الناس، وأحسن الناس رأياً في العامة.

- روت أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ بلغت الألفين، وروى عنها عمر بن الخطاب وكثير من الصحابة ومن التابعين.
- نال رجلٌ من صاحبة الحرير الأخضر عند عمَّار بن ياسر، فقال له عمَّار: اعزُبْ مقبوحاً مَنْبوحاً، أتؤذي حبيبة رسول الله ﷺ.
- كان مسروق إذا روى عنها يقول: حدثتني الصديقة بنت الصديق، البريئة المبرَّأة.
- عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».
- عن هشام بن عروة أنَّ رسول الله لما كان في مرضه جعل يدور في نسائه، ويقول: أين أنا غداً؟ حرصاً على بيت عائشة، قالت عائشة: فلما كان يومي سَكَن.
- قال العلماء إنَّ رُبع الأحكام الشرعية منقولة عن عائشة.
- روى ابن حجر حديثاً عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال لها: «أما ترضين أن تكوني زوجتي في الدنيا والآخرة».
- قال عمار بن ياسر: إني لأعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة.
- توفي رسول الله ﷺ ولها من العمر ثمانية عشر عاماً، وتوفيت

بعده بخمسين سنة في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم جميعاً.

- قالت عن عليّ بن أبي طالب: إنه - والله - ما كان بيني وبينه في القديم إلا ما كان بين المرأة وأحمائها، وإنه عندي - على معتبتي - لمن الأخيار.
- قال علي رضي الله عنه: صدقتْ والله وبرَّتْ، ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة.
- رأت عائشة بُرْداً مُزَيَّناً على امرأة وهي في المطاف فنادتها وأخبرتها أن رسول الله ﷺ نهى عن ذلك.
- كانت تنهى النساء عن دخول الحمَّام، تعني حمَّامات الاغتسال المشهورة في بلاد الشام آنذاك.
- قال عمر بن الخطاب: أدنوا الخيل وانتضلوا وانتعلوا وإياكم وأخلاق الأعاجم، وأنْ تجلسوا على مائدةٍ يُشْرَبُ فيها الخمر، ولا يحل لمؤمن ولا مؤمنةٍ تدخل الحمام إلا بمئزر، إلاَّ مِنْ سُقْم، فإن عائشة حدثتني أن رسول الله ﷺ قال - وهو على فراشي: «أي امرأة مؤمنة وضعت خمارها في غير بيتها ، هتكت الحجاب بينها وبين الله عز وجل».
- قالت عائشة: كنت أدخل البيت الذي دُفن فيه رسول الله ﷺ، وأبي رضي الله عنه واضعةً ثوبي، وأقول: إنما هو زوجي وأبي،

فلما دُفن عمر رضي الله عنه، والله ما دخلت إلا مشدودةً عليَّ ثيابي حياءً من عمر رضي الله عنه.

ونقول: يالها من رسالة عائشية مهمة لنساء المسلمين في كل زمانٍ ومكان.

❁ قال ابن أبي عتيق؟ تحدثت أنا والقاسم بن محمد بن أبي بكر عند عائشة حديثاً، وكان القاسم لحَّانة، أي يلحن في حديثه لحْنَ الخطأ في النحو، وكانت أمه أَمَةً غير عربية، فقالت له عائشة: مالك لا تحدِّث كما يُحدِّث ابن أخي هذا؛ أما إني قد علمتُ من أين أُتيت، أما هذا فقد أدَّبتْه أمه - أي أنها عربية -، وأما أنت فقد أدَّبتْك أمك - أي أنها غير عربية -

قال: فغضب القاسم، وأخفاها في نفسه، فلما رأى مائدة عائشة قد أُتي بها قام، قالت: أين؟

قال: أصلي، قالت: اجلس - غُدَرُ - إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا صلاة بحضرة الطعام ولا هو يدافعه الأخبثان».

وأقول: ما أجمل هذا المجلس العائشيَّ الذي يتميز بالعلم والحكمة، فلقد أدركت من القاسم ما أخفى في نفسه، ولهذا قالت له - غُدَر - أي ياغادر، وكأنها تريد أن تشعره بأنها فهمت أنه غضب من نصيحتها، ولهذا يريد ألاَّ يأكل من طعامها، ومع ذلك فقد أجلسته بحجة شرعية حيث ذكرت له الحديث.

- دخلت على عائشة ابنة أخيها: حفصة بنت عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق، وعليها خمار رقيق يشفُّ عما وراءه فأخذته عائشة وشقَّته، وأعطتها خماراً كثيفاً.
- عثر رجل في حبل خيمة في منى، فضحك منه بعض الشباب الذين رأوه، فزجرتهم عائشة رضي الله عنها ونهتهم عن الضحك على أحدٍ من الناس.
- رأت مولاتها تزاحم الرجال عند الركن في المطاف فنهتها عن ذلك، وأمرتها ألاَّ تعود إلى مثله.
- سمعت صاحبة الحرير الأخضر عن امرأة تلبس نَعْلَ الرجال، فأمرتهم أن يبلِّغوها بما ترويه عن الرسول ﷺ من قوله: «لعن الله الرَّجِلَةَ من النساء».
- دخل عبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها، فقالت: من هذا؟ فقال: أنا عبيد بن عمير، قالت: عمير بن قتادة؟ قال: نعم يا أمّتاه، قالت: أما بلغني أنك تَجلس ويُجلس إليك - تَعني مجالس الوعظ - قال: بلى يا أم المؤمنين، قالت: فإياك وتقنيط الناس وإهلاكَهم.
- نظرت إلى هدايا ثمينة من ثياب وفضة بعث بها معاوية بن أبي سفيان، فبكت وقالت: لكن رسول الله ﷺ لم يكن يجد هذا، ثم تصدَّقت به كلَّه.

❁ جاء مسكين إلى بيت عائشة يسأل وهي صائمة وليس لها إلا رغيف، فقالت لمولاتها: أعطيه الرغيف، فقالت: ليس لديك يا أم المؤمنين ما تفطرين عليه، فأمرتها أن تعطي السائل الرغيف، فأعطته، فلما اقترب المساء أهدى إليها أهل بيت من الأنصار شاةً مجلَّلة بالخبز، فدعت مولاتها وقالت: كلي من هذا، هذا خير من قرصك.

❁ روى الإمام أحمد أنَّ عبدالله بن عامر بعث إلى عائشة بنفقةٍ وكسوة، فقالت للرسول: أي بني، لا أقبل من أحدٍ شيئاً، فلما خرج، قالت: رُدُّوه عليَّ، فردّوه، قالت: إني تذكرت شيئاً، قال لي رسول الله ﷺ: يا عائشة، من أعطاك عطاءً بغير مسألة فاقبليه، فإنما هو رزق عرضه الله لك».

وأقول: ما أعظمها من امرأةٍ تنطلق في حياتها على هدى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

❁ بعث إليها معاوية يوماً بثمانين ألف درهم، فما أمسى عندها درهم - تصدَّقت بها - قالت لها جاريتها: فهلا اشتريت لنا منه لحماً بدرهم؟ قالت: لو ذكرتيني لفعلت.

❁ روي ابن سعدٍ في طبقاته أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول: لأن أكون قعدتُ في منزلي عن سيري إلى البصرة أحبّ إليَّ من أن يكون لي عشرة من الولد كلهم مثل عبدالرحمن بن الحارث

ابن هشام، وتقول: يا ليتني كنت شجرةً أسبِّح وأقضي ما عليَّ، ليتني متُّ قبل يوم الجمل بعشرين سنة.

وكانت عائشة كلَّما قرأت قوله تعالى:﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾.

تبكي حتى تبلَّ خمارها حزناً على خروجها إلى الشام.

وأقول: ليس هناك بعد هذا الندم العائشي من حجَّةٍ يحتجُّ بها بعض مثقفي هذا العصر على ما يتحدَّثون عنه من مشاركات النساء السياسية والعسكرية. فإنَّ ندم عائشة يغلق هذا الباب تماماً.

- كانت صاحبة الحرير الأخضر ذات جمالٍ وكمالٍ، وكان لها من البلاغة والبيان، والذكاء والفطنة ما زادها مكانةً عند رسول الله ﷺ. فكان يلاطفها ويبتسم لها، ويقبل منها بعض ما تُدلُّ به عليه، ويُظهر لها الرضا بذلك.
- كانت هي الزوجة البكر الوحيدة التي تزوجها الرسول ﷺ.

ومن ألْطفِ وأجمل إشاراتها إلى هذه الميزة ما رواه البخاري من أنها قالت لرسول الله ﷺ ذات يوم: أرأيتَ لو نزلتَ وادياً، وفيه شجرةٌ قد أُكل منها، ووجدت شجرة لم يؤكل منها، في أيِّها كنتَ تَرْتَع؟

قال لها: «في الذي لم يُرْتَع منها».

إنها تشير إلى نفسها بالشجرة التي لم يرتع منها أحد، وإلى بقية زوجات النبي ﷺ بالشجرة التي أُكل منها وُرتع فيها، لأن الرسول ﷺ تزوَّجهن ثيِّبات. وكأنني به عليه الصلاة والسلام يسعد بهذا الرمز الجميل وبهذا الذكاء والفطنة، ولهذا أسعدها وأرضاها بهذه الإجابة عن سؤالها الذكيّ.

وماذا بَعْدُ؟

وماذا بعد؟

إنها السنة الثامنة والخمسون من الهجرة المباركة.

وإنه شهر رمضان المبارك من تلك السنة.

وإنها نهاية المطاف لصاحبة الحرير الأخضر.

كيف؟

مرضت عائشة رضي الله عنها في رمضان من عام ثمانية وخمسين للهجرة، وكان ذلك هو مرض وفاتها.

اشتدَّ عليها المرض، واقترب بها من عتبة الوفاة والفراق لهذه الدنيا.

«ما أقربَ حبيبة رسول الله ﷺ منه الآن!»

جاء عبدالله بن عباس رضي الله عنهما مستأذناً على عائشة للسلام والوداع، فأخبرها ابن أخيها عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي بكر باستئذان ابن عباس.

فقالت: دعني من ابن عباس فإنَّه لاحاجة لي بتزكيته.

وكأنها كانت تتوقَّع منه أن يزكِّيها.

فقال ابن أخيها: يا أمتاه ابن عباس من صالحي بنيك، يسلِّم عليك ويودعك.

قالت: فأذن له - إنْ شئت -.

فلما أن سلَّم وجلس قال:

أبشري، قالت: بم؟ قال: ما بينك وبين أن تلقي محمداً ﷺ والأحبة إلا أن تخرجَ الروح من الجسد؛ كنتِ أحبَّ نساء رسول الله إليه، ولم يكن رسول الله ﷺ يحبُّ إلا طيباً.

وسقطت قلادتك ليلة الأبواء، فأصبح الرسول ﷺ ليطلبها حين يصبح في ذلك المنزل، فأصبح الناس ليس معه ماء، فأنزل الله سبحانه وتعالى: أنْ تيمَّموا صعيداً طيِّباً، فكان ذلك من سببك، وما أذن الله لهذه الأمة من الرخصة.

وأنزل الله براءتك من فوق سبع سماوات جاء بها الروح الأمين، فأصبح ليس مسجد من مساجد الله يذكر فيه، إلاَّ هي تتلى فيه آناء الليل والنَّهار، فقالت عائشة: دعني منك يا ابن عباس، فوالذي نفسي بيده لوددت أني كنت نسياً منسيًّا.

وماذا بعد؟

ودَّعت صاحبة الحرير الأخضر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هذه الدنيا بعد رحلةٍ حافلة بالعلم، والأدب والفقه، والرواية، والدعوة إلى الله على بصيرةٍ وهدى.

رضي الله عنها وأرضاها.

ما أعظمه من مثال!

مثال حيٌّ للمرأة التي تسمو بدينها، وخلقها، وعلمها، وثقافتها، وذكائها وفطنتها، وشموخها وهمّتها، وورعها وعفّتها، وثباتها وقوَّتها، ووعيها وشمول نَظرتها، وبلاغة منطقها وفصاحة كلمتها.

مثال حيٌّ تبرز صورته المشرقة أمام كلٌّ فتاة مسلمة تريد أن تحقِّق النجاح في حياتها على هدىً من الله وبيان.

فما أعظمه مثال!

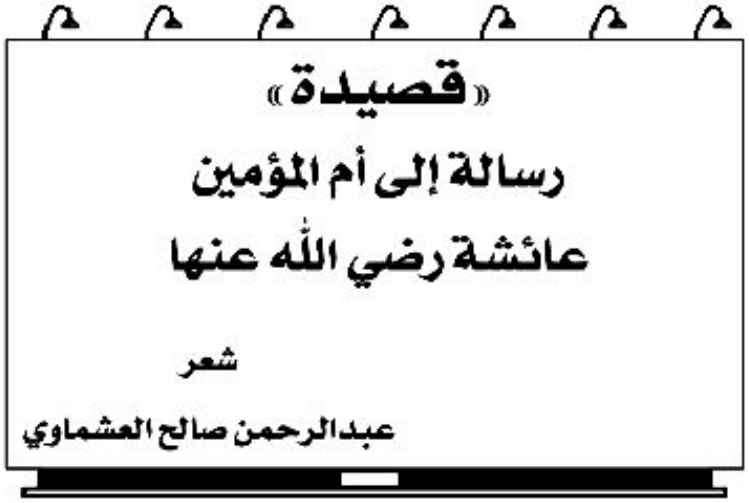
«قصيدة»
رسالة إلى أم المؤمنين
عائشة رضي الله عنها
شعر
عبدالرحمن صالح العشماوي

أمـــاهُ أمَّـــاهُ دمع العين ســـيَّـــالُ وخـاطري في دروب الحـزنِ رحَّـال

أمَّـــاهُ أمَّـــاهُ مـــا زالت تؤرِّقني همومُ عصري ففي الأعماق زلزالُ

قصائدي لم تزلْ تجري على نسقٍ من الوفـاءِ لأسـلافي ومـا نالوا

وفـــاءَ من في حنايا قلبـــه أملٌ عـذبٌ وفي نفســه للحقِّ إجـلالُ

بـيـنـي وبـيـنـك آكـــــامٌ وأوديـةٌ مـــن الـــدهـــور، وآثـــارٌ وأطـــلالُ

وبيننا جـســرُ إيمانٍ عـبـرتُ به وفي الطريق مـــفـــازاتٌ وأهوالُ

أتيت أقـرأ أمـجـادي، أعـبِّـر عن نفسي، ولي في بلوغ القصد آمالُ

أتيت أحمل مـأساتي على كـتـفي وفي يدي قلمٌ بالحبِّ ســـيَّـــالُ

أمـــاه أمـــاه أخـبـاري منوَّعـة وللحكايات عند الناس أشكالُ

في عصرنا، لجّة الأحداث مائجة ومـا لنا زورقٌ في البـحـر جَـوَّالُ

وأمَّـةُ الحقِّ في أوطانها اشـتـعلت نار الخلافِ، وأهل الباطل احتالوا

أيا حليلة خـيـر الناس، أمـتنا تمشي وفي صدرها المكشوف سلسالُ

تمشي وفي يدها البيضاء أسورةٌ تمشي وفي رجلها البيضاء خلخالُ

تبـرجت أمـتي للعـابثين بهـا وغـــرَّها من فم التنين مـــوَّالُ

لو أنَّها احتشمت ما ذاب في فمها صـوتُ الإباءِ، ولا أعـداؤها صـالوا

الظالمون قِصارٌ في حـقـيـقـتـهم لكنهم بتـغـاضي أمـتي طالوا

إذا تخلَّى كـريمٌ عن مـبـادئه فـســوف يرتع في الأوطان أنذالُ

أمـاه أمـاه ضـاع العـدل في زمنٍ أدنى وسـائله قـيـدٌ وأغـلالُ

أيا حليلة خـــيـــر الناس، إنَّ بنا داءَ السكوتِ على ما تقتضي الحالُ

تشكو مـوائدنا أصناف مـا حـملتْ من الطعـــام، ويشكو لهـــونا المالُ

أمـاه أمـاه، لو أبصرت من نفخـوا أبواقهم، في خداع الناس واحتالوا

ومن أراقـــوا دمـــاءَ الأبرياءِ بلا ذنبٍ فكم قـتلوا بالظنِّ واغـتـالوا

ولو رأيتِ طواويس الرجـــال وقـد شـدوا مـآزرهم بالوهم واخـتـالوا

ولو رأيت رجـال العلم كـيف غـدوا لما سـقـتـهم شـراب الغـفلة الدَّالُ

ولو رأيت نســـاء المسلمين وقـــد بدا لهن على الأوهام إقـــبـــالُ

إذنْ، لعـــانيتِ يا أمـــاه من ألم وكـان للدمع في عـينيك شـلاَّلُ

أمـاه، قـولي لمن باعت كـرامـتَـهـا وصـدها عن دروب الخـيـر طبَّـالُ

قـولي لمن جـعلتْ أزياءها هدفـاً ومن دعـاها إلى التـحـرير دجَّـالُ

أهكذا تركـــبين الموج حـــائرةً ويســتـبـيـحك بالأهوال أنذالُ

تنسين أنكِ للأجـيـال مـدرسـة وكم تعـــزُّ بعـــزِّ الأمِّ أجـــيـــال

أيا حليلة خـــيـــر الناس أمـــتُنا لهـا جـواد من الإعـلام صـهَّـالُ

لهـا سـيـوف من الأبواق قـاطعـة لهـــا دروعٌ وأبوابٌ وأقـــفـــالُ

لهـا شـعـوبٌ تسرُّ العينَ كـثـرتُها في كلِّ قُطر من السكـان أرتـال

لهـا رجـالٌ لهم في القـول ألسنةٌ مِـهـذارةٌ، ولهم في البنك أمـوالُ

سلاحهم في لقاء الخصم ممتهَنٌ لكنه في لقـــاء الأهل قـــتَّـــالُ

باعوا فما ربحوا، قالوا فما صدقوا وفـــوق هذين إخـــضـــاعٌ وإذلالُ

أمـــاه أمـــاه أشـــجـــانا ذوو نسبٍ فـــينا ولكنهم عن ديننا مـــالوا

قلنا لهم خَطرٌ يا قــوم يدهمكم فالسيف منصلتٌ، والسهمُ نبَّالُ

ولن تروا من يكيل الظُّلمَ في زمنٍ إلا بما كـــالَه للناس يكتـــالُ

قالوا: رويداً فإنَّ الوَعْيَ ينقصكم القول ماقال «جوزيفٌ» و «ميشالُ»

من أعلن الحقَّ - يا أماه - متهمٌ في عصرنا، ودُعاة الزَّيفِ أبطالُ

أيا حليلة خير الناس، قافيتي يتيمةٌ ما لها عَمٌّ ولا خالُ

أرسلتُها وبنو قومي على جُرُفٍ من الخلافات ما زالتْ وما زالوا

أماه قولي لنا، ماذا نقدِّم في عصر أحاط به ضعفٌ وإخلالُ

تاهت مراكبُنا والموجُ ملتطمٌ وفي الشواطئ - يا أماه - أدغالُ

هنا رأيت خيوط النور، أسعدني نسيجُها، ولثوب الفجر إسبالُ

تحدَّث الفجر، أنهار الضياء جرت وللشعاع حكاياتٌ وأمثالُ

يا أيها المشتكي، عيناكَ منطقةٌ للحزن فيها مسافاتٌ وأطوالُ

لا تنس أن خُطا هذا الوجود، لها في علم خالق هذا الكون آجالُ

نريد شيئاً، وننسى أن خالقنا لما يريد بهذا الكون فعَّالُ

الرياض - الازدهار - ١٤١١هـ

حديث أمِّ زرع

حديث طريف عجيب، أنموذج متكامل لمقدرةٍ بيانية كبيرة، وثروةٍ لغوية غنيَّة، وإدراكٍ لغريب اللغة وأسرار الإبداع فيها، وهو مع ذلك دليل على عُمْق معرفة «صاحبة الحرير الأخضر» بخفايا مشاعر النساء التي لا تظهر إلاَّ لمن عرفهنَّ وخَبَر طباعهن.

حديث أم زرع مَعْلَمٌ من معالم الفصاحة والبيان التي تبرزُ في كل ساحةٍ من ساحات الكلام المرويِّ عن عائشة رضي الله عنها.

جديرٌ بنا أنْ نتنقَّل معاً بين أفياء هذا الحديث العجيب وأن نتجول تحت ظلال أغصانِ بلاغته، وأنْ نستمتع بجمال منظره، وشذا أزهاره، قبل أنْ نشرح ما فيه من الغريب، ونبرز ما فيه من صور البلاغة والبيان.

الحديث رواه البخاري في كتاب النكاح «باب حسن المعاشرة مع الأهل».

عن هشام بن عروة بن الزبير، عن عبدالله بن عروة، عن عروةَ، عن عائشة رضي الله عنهم جميعاً قالت:

جلس إحدى عشرة امرأة، فتعاهَدْنَ، وتعاقَدْنَ أنْ لا يَكْتُمْنَ من أخبار أزواجهنَّ شيئاً.

قالت الأولى:

زوجي لحْمُ جملٍ غَثّ، على رأس جبلٍ: لا سَهْلٍ فيُرْتَقى ولا سَمينٍ فَيُنْتَقَل - وفي روايةٍ أخرى - فَيُنْتَقَى.

قالت الثانية:

زوجي لا أَبُثُّ خَبَرَهْ، إني أخاف ألاَّ أَذَرَهْ، إنْ أَذْكُرْهُ أَذْكُرْ عُجَرَهُ، وَبُجَرَهْ.

قالت الثالثة:

زوجي العَشَنَّقْ، إنْ أَنْطِقْ أُطَلَّقْ، وإنْ أَسكُتْ أُعَلَّقْ.

قالت الرابعة:

زوجي كلَيْلِ تِهَامَهْ، لا حَدٌّ ولا قُرٌّ، ولا مخافةَ ولا سآمَهْ.

قالت الخامسة:

زوجي، إنْ دَخَلَ فَهِدْ، وإنْ خَرَجَ أَسِدْ، ولا يَسأل عمَّا عَهِدْ.

قالت السادسة:

زوجي، إنْ أَكَلَ لَفَّ، وإنْ شَرِبَ اشتَفَّ، وإنْ اضْطَجَعَ الْتَفَّ، ولا يُوْلِجُ الكفَّ، ليعلم البَثُّ.

قالت السابعة:

زوجي غَيَايَاء، أو عَيَايَاء، طَبَاقَاء، كلُّ داءٍ له داء، شجَّكِ أو فَلَّكِ، أو جَمَع كُلاً لَكِ.

قالت الثامنة:

زوجي، المَسُّ مَسُّ أرنب، والرِّيحُ رِيحُ زَرْنَبْ = وأنا أغلبُه والنَّاس يَغْلِبْ.

قالت التاسعة:

زوجي رَفيعُ العِماد، طويلُ النِّجاد، عظيم الرَّماد قريب البيتِ من النَّاد.

قالت العاشرة:

زوجي مالكٌ، وما مالِكْ؟ مالكٌ خيرٌ من ذلكْ، له إبلٌ كثيرات المَبَارك، قليلات المَسارِح، وإذا سَمِعْن صوت المُزْهِرِ، أَيْقَنَّ أنهنَّ هَوالِك

قالت الحادية عشرة:

زوجي أبو زرعٍ، وما أبو زَرْع؟ أَنَاسَ من حُلِيٍّ أُذُنيَّ ومَلأ من شحم عَضُدَيَّ، وبجَّحَني، فَبَجَحتْ إليَّ نفسي، وجدَني في أهل غُنَيْمةٍ بِشِقٍّ، فجعلني في أهلِ صَهيلٍ وأَطِيط، ودائِس ومُنِقٍّ، فعندَه أقول فلا أُقبَّحْ، وأَرقُدُ فأتصبَّحْ، وأَشربُ فأتقنَّحْ - أو أتقمَّحْ -.

أمُّ أبي زَرْعٍ، فما أُمُّ أبي زرع؟ عُكُومُها رَدَاحْ، وبَيْتُها فَسَاحْ.

إبنُ أبي زرعٍ، فما إبنُ أبي زَرْع؟، مَضجَعُه كَمَسَلِّ شَطْبَه، ويُشْبِعُه ذِرَاعُ الجَفْرة.

بِنْتُ أبي زَرْعٍ، فما بنتُ أبي زرع؟ طَوْعُ أبيها وطَوْعُ أُمِّها، ومِلْءُ كِسَائها، وغَيْظُ جارتها.

جاريةُ أبي زرعٍ، فما جاريةُ أبي زَرْع؟ لاتَبُثُّ حديثَنا تَبْثيثا، ولا تُعشِّش بيتَنا تعشيشا.

قالت:

خَرَجُ أبو زرعٍ، والأَوْطابُ تُمْخَض، فلقَي امرأةً معها ولدان لها كالفَهْدَين، يَلْعَبَان من تحت خصرها برمَّانتين، فطلَّقني وَنكَحَها، فنكَحْتُ بعدَه رَجُلاً سَرِيًّا، رَكِبَ شريًّا، وأخذ خَطِّيًّا، وأراحَ عليَّ نَعَما ثَريًّا، وأعطاني من كلِّ رائحةٍ زَوْجًا، قال:

كُلِي، أُمَّ زرعٍ، وميري أَهْلَكِ.

قالت:

فلو جمعْتُ كلَّ شيءٍ أعطانيه، ما بَلَغَ أصغرَ آنيةِ أبي زرع.

قالت عائشة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كنتُ لكِ كأبي زرعٍ لأمِّ زرع»، (في الأُلْفَةِ والوفاء، لافي الفُرْقة والجَلاَء)، (إلا أنَّه طلَّقها، وإني لا أُطلِّقك).

قالت عائشة: يا رسول الله، بل أنت خيرٌ من أبي زرع وفي رواية الزبير: بأبي وأمِّي لأنت خيرٌ لي من أبي زرعٍ لأم زرع.

حديث أمٍّ زرع

بستان البيان المُورِق، ونَخْلُ البلاغة المُعْذِق.

نعم - أيها الأحبة - ما هذا بحديثِ ذي حروف وكلماتٍ وجُمَل، بل هو بستان مُورقُ الأغصان، وواحة ممتدَّةُ الظِّلالِ بديعةُ الأفنان، ونخلٌ باسقٌ تتدلَّى منه عذوق البلاغة والبيان.

نحن هنا في عالمٍ رحب من فصاحة الكلمة، وبلاغة التراكيب، وصدقِ العاطفة، وجمالِ الأُلفةِ والمحبةِ وكمالِهما، نحنُ هنا في رحلةٍ متميِّزة لا نرى فيها إلا البديعَ المُعْجِبْ، ولا نسمع فيها إلا التَّغريدَ المُطْرِب، ولا نَشَمُّ فيها إلا شذا الأزهار الندِيَّة، ولا نذوق فيها إلا حَلاوةَ الثِّمار الشهيّة.

هنا نرى آفاق بيتِ النُّبُوَّة الرَّحبَةْ، ونعيش مع الجلسات العائلية العَذْبَة، تتَّسع أمام أعيننا حُجْرَةُ عائشة الصغيرة، لتصبح واحة كبيرة، وكيف لا تكون كذلك، وقد جلس فيها الحبيبقص محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلَّم، وفتح قلبَه الطاهرَ النقيَّ لحبيبته

التي أعدَّتْ نفسها إعداداً مُدْهِشاً بالبلاغة والبيان، والعلم والثقافة، والوعي والبصيرة، وأسرجتْ له قناديل الحبِّ والوفاء، وفرشت له بُسُطَ السعادة والهناء.

نعم - أيها الأحبة - نحن هنا تحت ظلالِ دوحةٍ نبويَّة خضراء الأوراقْ، تنفتح أمامنا الآفاق، وتفتح لنا شَمْسُ البلاغة بوَّابة الإشراق، لنرى كيف يأسرنا بريقُ النَّدَى على أزاهير الأشواق.

الرَّاويةُ هنا صاحبةِ الحرير الأخضر، والمستمع هنا هو أفضل الخلق وسيِّدُ البَشَر، فكيف لا نكون سُعَداء بهذا المكان، مستمتعين بأطايب البلاغة والبيان؟.

قلنا - أكثر من مرّة - إنَّ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم الاجتماعية، وعلاقاته العائليَّة، هي الكنز الكبير الذي يحتاج إليه الناس جميعاً لتكون بيوتُهم حقولاً من السعادة، وبساتين من المودَّةِ وواحات من المحبَّة.

وقلنا - أكثر من مرَّة - إن عائشة - رضي الله عنها - صورةً حيَّة للقدوة الصالحة التي رسمتْ للنساء معالمَ الزَّوجة المثقفة الواعية، الفصيحة، البليغة، المحبَّة لزوجها التي تعرف كيف تُدخل السعادةَ على قلبه، حتى تصبح جديرةً بتقديره وحبِّه.

قلنا ذلك كما قاله غيرنا، ونقوله هنا، ونُصِرُّ على التذكير به

في هذا العصر الذي أصلح من الأمور المادِّية، ما أفسد به كثيراً من الأمور الروحية.

مرحباً بكم مع حديث أمِّ زرع في رحلة استكشافية ماتعة، نَسْبُر فيها أغوار كلماته وجمله ومعانيه:

قالت الأولى:

زوجي لحم جملٍ غَثٌّ على رأس جبلٌ

لا سَهْلٍ فيُرْتَقَى، ولا سمينٍ فَيُنْتَقل

الجَمَل الغَثُّ: هو الذي يُستَغَثُّ ويُكرَه، ويُتْرَكُ بسبب هُزالِه، فهو لحم بَغيضٌ يُسبِّب الغَثَيان، تقول العرب: غثَّ الجرح غَثّاً وغَثيثاً، إذا سال فيه القَيحُ ومنه يقال: أغثَّه الحديثُ السيِّء، وفُلانٌ غَثُّ الخُلُق.

وهذا كلُّه كناية عن صعوبةِ أخلاق زوجها ورعونتِه وقسوته. لا سمين فَيُنْتَقل: أي أنه لا يُنْقَل من مكانٍ إلى آخر بسبب هُزاله ولا يُهْدَى إلى أحدٍ ولا يُؤْكَل، وقد وَرَدتْ في روايةٍ أخرى كلمة «فَيُنْتَقى» بدلاً من «يُنْتَقَل»، فيكون المعنى: إنَّ لحم هذا الجملِ الغَثُّ ليس فيه نَقى يُسْتَخْرَجُ منه، والنَّقَى: المُخّ، تقول العرب: نَقَوْتُ العظم ونَقَيْتُه وانْتَقَيْتُه، إذا استخرجتُ مُخَّه.

قالت الثانية:

زوجي لا أَبُثُ خبرَه، إني أخاف ألاَّ أَذَرَهْ إنْ أَذْكرْه أَذْكُرْ عُجَرَه وبُجَرَه.

لا أَبثُّ خبرَه: أي لا أتحدَّث عنه ولا أُفصِّل، فهي هنا آثرتْ عَدَم البَوْح بما في نفسها نحو زوجها، لأنَّها لا تضمن نفسها حينما تتحدَّث، فهي - لو تحدَّثتْ - ستذكر كلَّ شيء، وهذا ما قصدته بقولها: «أذكر عُجَرَه وبُجَرَه».

العُجَرُ: تَعُقُّد العَصَب والعروق في جسد الإنسان حتى تصيرَ ناتئةً بارزة.

والبُجَرُ: تَعَقُّدُ عروق البطن.

قال الأصمعي: العُجْرَةُ نُفْخَةٌ في الظَّهر، والبُجْرَةُ نُفْخَةٌ في السُّرَّة، فيكون معنى عُجَرِه وبُجَره عيوبَه وأسرارَه.

قالتْ الثالثة:

زوجي العشنَّق، إنْ أَنطقْ أُطَلَّقْ، وإنْ أسكُتْ أُعَلَّقْ.

العَشَنَّق: الطويل القبيح الطول، وقيل: هو طويلُ العُنُق طولاً قبيحاً، وقيل إنَّ معناها القصير، فهي من أسماء الأضداد، مثل كلمة الجَوْن للأبيض والأسود حيث تَدُلُّ قرينةُ الكلام، والموقف الذي قيل فيه على المعنى المراد منه.

وقيل: إنَّ معنى العَشَنَّق: المقدام الشَّرس الذي يُعْرَفُ بسوء خُلُقه، وفيما ذكرت من صفاته بعد هذه الكلمة ما يدلُّ على سوء خُلُق زوجها.

قالت الرابعة:

زوجي كليل تهامة، لا حَرٌّ ولا قُرّ، ولا مخافة ولا سآمة.

القُرُّ: هو البرد الشديد، والسآمة المَلَل، وفي قولها هذا كناية عن اعتدال شخصية زوجها ودَمَاثةِ خلقه، فليل تهامة معروف باعتداله، وجمال نسماته الهادئة المنعشة.

قالت الخامسة:

زوجي إن دَخَلَ فَهِدْ، وإنْ خرج أسِد، ولا يسأل عمَّا عَهِدْ

فَهِدَ: من الفَهْد وصفته بصفاته حين دخوله البيت، فمن المعروف من طباع الفَهْد أنه إذا دخل عرينَه تغافل عما فيه، وهدأ، واستغرق في نومه، تقول العرب: أَنْوَمُ من فَهْدٍ، وأكسَبُ من فهد.

أَسِدَ: أي: يصير بين الناس كالأسَد قوَّةً ومكانة.

ولا يَسأل عما عَهِد: أي لا يُؤذي أهله بالسؤال عمَّا تركه عندهم، أو جَلَبه إليهم، وفي هذا كناية عن حُسْن خلق زوجها.

قالت السادسة:

زوجي إن أكل لَفّ، وإنْ شَرِبَ اشتفَّ، وإن اضطجع التفّ، ولا يُولج الكفّ ليعلم البَثّ.

إن أكل لَفَّ: أي أكثر من الأكل، ولَفَّ: أي جمع إلى نفسه الطعام كلَّه

اشتفَّ: امتصَّ الماءَ وشربه كلَّه

التفَّ: أي تجمَّع على نفسه ولفَّ جسَدَه وقت النوم

ولا يولج الكفَّ ليعلم البَثّ: لا يُدخل يده في الشيء ليعرف أسراره ومما يروى في هذا المقام: أنَّ عمروَ بن العاص سأل زوجة ابنه عبدالله - رضي الله عنهم - عن حالها مع زوجها فقالت: هو كخير الرجال من رجلٍ لا يُفتِّش لنا كَنَفا، أي: لا يزعج أهله بالاطلاع على كل شيء، والتدخُّل في كل شيء.

قالت السابعة:

زوجي غياياء، أو عَياياء، طَبَاقاء، كل داءٍ له داء شَجَّكِ، أو فلَّكِ، أو جمع كُلاً لكِ.

غياياء: من الغَيِّ، وعَيَاياء: من العِيّ

طباقاء: أحمقُ تنطبق عليه الأمور

شجَّكِ: جرحك في رأسك

فَلَّكِ: جرحك في جسدك، تقول العرب: الشَّجُّ للرأس، والفَلُّ للجسم وقيل لنوم الضحى «فَيْلُولَة» لأنَّه يَفُكُّ الجسم.

وقيل في معاني غَياياء: إنها من الغَيَايَة، وهو ما يُظِلُّ الشخصَ

من فوق رأسه فهو مُغطًّى بالجهل.

وقيل: الغياياء: الظُّلْمَة والخَيْبَةُ وثِقَلُ الرُّوح.

وقيل في عَياياء: العَيَاياءُ من الإبل الذي لا يَضرب الناقة ولا يُلْقِح، وقيل: العَيِيُّ الذي لا يهتدي ولا يسترشَد.

قالت الثامنة:

زوجي: المَسُّ مَسُّ أرنب، والرِّيح رِيْحُ زَرْنَب.

الزَّرْنَبُ: حشيشة دقيقة طيبة الرائحة، وقيل: هي نَبْتٌ طيب الرائحة.

وورد في روايةٍ تكملةٌ هي: وأنا أغلبُه والناسَ يَغْلب

والمعنى: أنه ذو خلق سهلٍ ليِّن مع أهله، فهو لا يتسلَّط عليهم، وفي هذا المعنى روى معاوية أثراً جاء فيه عن صفات كرام الرجال مع النساء: «يَغْلِبْنَ الكريم، ويغلبهنَّ اللئيم».

قالت التاسعة:

زوجي رفيع العماد، طويل النجاد، عظيم الرماد، قريبُ البيتِ من النَّاد.

رفيع العماد: كناية عن شرفه ومكانته

طويل النِّجاد: أي: طويل حَمالةِ السيف، كناية عن طول زوجها وهي كناية عن طول حَسَنٍ غير مُستقبح.

عظيم الرَّماد: كناية عن الكرم لكثرة ما يوقد النار لضيوفه

قريب البيت من النَّاد: أي أنَّ بيته قريب من نادي القوم ومكان اجتماعهم فهو لا يتوارى عن الناس بخلاً.

قالت العاشرة:

زوجي مالك وما مالك، مالك خير من ذلك، له إبل كثيرات المبارك، قليلات المسارح، وإذا سمعن صوت المُزْهِر أيقنَّ أنهنَّ هوالك.

ذكرت اسم زوجها مالك، وتساءلت للفْتِ النظر

إبل كثيرات المَبارك: أي أنها باركة عند داره تنتظر كلٌّ واحدة منها دورَها في النَّحرْ للضيوف، وورد في رواية: المَبَارح: أي المكان الذي تقيم فيه ولا تَبْرَحُه.

قليلات المَسارح: لا تسرح إلى المراعي لأنها مجهَّزة للضيوف

المُزْهِر: قال أبو سعيد الضرير: هو الذي يُوقد النَّار للأضياف فنارُه مزدهرةٌ لا تخبو، وقد شكِّلت الكلمة في الرواية الأصليَّة بـ«المِزْهَر» ومعناه العود أو الدّفُّ الذي يُضْرب فرحاً بالضيوف.

وكلٌّ ذلك كناية عن الكرم.

قالت الحادية عشرة:

وقولها أطول الأقوال، وهو مَرْبطُ فرس الحديث كلِّه، وهو المتضمِّن لعدد من الكلمات والصِّفات التي توقَّف عندها رسول الله

صلى الله عليه وسلم وهو يستمع إلى عائشة، وفي قولها أيضاً مفاجآت القصة المثيرة.

أَنَاسَ من حُلِيٍّ أُذنيَّ: أي: مَلأ وأثقل أذنيَّ بالحُلِيّ حتى تدلَّى منهما فأحدث أصواتاً، والنَّوْس في لغة العرب: يعني حركةَ كلِّ شيءٍ تَدلَّى.

ملأ من شحم عَضُديَّ: كناية عن كرمه لأهله وعدم التقتير عليهم. وبجَّحني فبجحَتْ إليَّ نفسي: أي وسَّع عليَّ في حياتي، وأنعم عليَّ وأعطاني حتى فرحت بذلك وافتخرت به، وعظَّمني حتى عَظُمتْ عندي نفسي.

في أهل صهيل: أي: أصحاب خيل

وأطيط: أصحاب إبِل، والأطيط أصواتها

ودائسٍ: أي يقوم بالدِّياس وهو هَرْسُ سنابل القمح ليخرج منها الحَبّ

ومُنقٍّ: إما أن يكون المقصود بها الغِربال الذي يُنْخَل به الحبُّ بعد الدِّياس، أو يكون المقصود به أصوات المواشي.

أقول فلا أُقبَّح: أي: يسمع قولي ولا ينتهرني أو يُسيء إليَّ

وأرقد فأتصبَّح: أي أنام الضحى ولا يُزعجني، والعرب تعبِّر عن رفاهية المرأة بقولها: نَؤُوم الضحى.

وأشربُ فأتقنَّح: أي أكتفي من الشرب، وفي رواية: أتقمَّح بالمعنى نفسه، والنَّاقة القامح عند العرب هي التي ترد الحوض فلا تشرب لأنها راوية شَبِعَة.

عُكُومُها رَدَاح: العكوم: جمع عِكْم وهي الأعدال والأحمال التي توضع فيها الأمتعة، ورَدَاح: عظيمة، كثيرةُ الحَشْو ثقيلة بسبب امتلائها.

وبيتها فَسَاح: بيت واسع

مَضْجَعُه كمِسَلِّ شَطْبَه: الشّطبة: ما شُطِبَ من الجريد، وهو سَعَفُه الذي يُشَقُّ منه قُضبانٌ رقاقٌ تُنْسَجُ منها الحُصُر، وقيل: هو العود المحدَّد كالمِسَلّة، وقيل هو غِمْدُ السيف وذلك كلُّه كناية عن خِفَّةِ جسمه وعدم امتلائه بالشحم، والعرب تمدح الرِّجال بذلك، والمعنى: أنَّ اضطجاعه صغيرٌ لأنه ليس ممن يطيلون النوم

ذراع الجَفْر: الجَفْرَةُ: الأُنثى التي لها أربعة أشهر من ولد المَعْز

غيظ جارتها: أي أنها ذات جمال ونعمة تجعلها محسودة

لاتبثُّ حديثنا تَبْثيثا: أي لا تنقل أسرار البيت، من بثَّ الحقيبة إذا أخرج مافيها.

ولا تعشش بيتنا تعشيشا: أي لا تجعله مأوى لأعشاش الطيور وبيوت العناكب وغيرها، كناية عن نشاطها في عمل البيت

خرج أبو زرع والأوطاب تُمْخَض: الأوطاب: جمع وَطْبٍ وهو

وعاء اللَّبن، وتُمخض: أيْ تُهَزُّ وتُخضُّ ليستخرج منها الزُّبد.

كناية عن خروجه في زمن الخصب وطيب الربيع

فنكحتُ بعده رجلاً سرَّيا: السَّريُّ من كلِّ شيء خيارُه، والرجل السَّريُّ الخيِّر ذو المكانة المرموقة.

ركب شريّا: فرساً خياراً فائقاً وهو الذي يستشري في سيره أي: يركض بلا فتور

وأخذ خَطِّيّا: رمحاً خطِّياً، والخَط موضع بنواحي البحرين تُجْلَبُ منه الرِّماح الجيِّدة.

أعطاني من كلِّ رائحة زوجا: أي من كل نوعٍ من الماشية اثنتين.

ومِيري أَهْلك: أعطيهم منه المِيْرَةَ التي تكفيهم، والمِيْرَة: هي الطعام الذي يَمْتار الناس منه ويقتاتون.

هكذا - أيها الأحبة - كان حديث أم زرعٍ الذي روته عائشة - رضي الله عنها - بستاناً مورقاً بديعاً، متعدِّد الأشجار والأزهار، متدفِّق الأنهار، جاء شاهداً على ما سبقت الإشارة إليه من مَقْدِرَة صاحبة الحرير الأخضر البيانية والبلاغية.

هل روت عائشة هذا الحديث بعباراته كما سمعتها؟

أم أنها روته بالمعنى وأفرغت فيه من بلاغتها وبيانها وحسن سردها، وجمال أسلوبها ما أَلْبَسَه هذا الثوب المزخرف القشيب؟

أقول: كل ذلك دليلٌ على المدى البعيد الذي وصلت إليه - رضي الله عنها - في ميادين البيان العربي المشرق، وشاهدٌ على حافظةٍ قويَّة، وذوقٍ رفيع في اختيار الأحاديث التي تسعد بها قلب زوجها عليه الصلاة والسلام.

إنَّ حديث «أُمِّ زرع» لوحةٌ بديعةٌ ذات أبعادٍ متناسقة جعلته نصّاً لافتاً للنظر، مستحقاً للإعجاب والتقدير.

فهو حديث عائليٌّ يرشدنا إلى أهمية الجلوس مع الأهل مهما كانت المشاغل والمسؤوليات، وهل هنالك مسؤولية توازي مسؤولية الرسول صلى الله عليه وسلم تجاه أمته وعقيدته التي بعثه الله بها إلى الثقلين، الإنس والجن؟!

وهو حديثٌ شرعي، يرشدنا إلى المباح في الأحاديث العائلية بعيداً عن الغيبة المتعلِّقة بشخصٍ معروف بعينه، ففي الحديث إشاراتٌ إلى بعض الصفات غير الحميدة في بعض الأزواج، ولكنَّ الحديث يورد ذلك عاماً دون الإشارة إلى شخصٍ، أو ذكر اسمه وصفاته التي يُعْرَف بها.

وفي الحديث إشارة إلى جواز التبسّط في مجالسنا الخاصَّة بمثل هذا الحديث الطَّريف اللَّطيف الذي يعجبنا ويُمْتِعُنا.

وفي الحديث توجيهٌ إلى ضرورة إشاعة روح المحبة والمودَّة بين الزوجين خاصة، وأفراد الأسرة بصفةٍ عامة، وفي تعقيب الرسول

صلى الله عليه وسلم على عائشة بقوله: كنتُ لك كأبي زرعٍ لأم زرعٍ، إلا أنَّه طلَّقها وأنا لا أطلِّقك، أو قوله في رواية أخرى: في الأُلْفَةِ والوفاء لا في الفرقة والجلاء، أقول: في هذا التعقيب النبوي الكريم إشارة واضحة إلى أهميَّة هذه المشاعر الصادقة في بناء صروح الوئام والمحبَّة داخل الأسرة الواحدة.

إنَّ صاحبة الحرير الأخضر تضع لنا في حديث «أم زرع» من معالم البلاغة، وحسن اختيار الكلمات ذات الأثر والإيقاع الجميلين ما يمكن أن يكون أُنموذجاً متميِّزاً جديراً بأن يُحفظ ويُروى ويقتدى به من قبل الكتَّاب والوعَّاظ والمتحدثين.

إنها ترسم أمامنا لوحات مضيئات للصفات الكريمة من حسن الخلق، والكرم، والشجاعة، والوفاء، والصدق، والتعامل الواعي برفقٍ مع الناس في جميع مجالات الحياة، كما توحي إلينا بواقعية الحياة البشرية بما فيها من سلبياتٍ يمكن أن يتَّسع لها الصدر مع معالجتها بالحكمة والرفق.

وأخيراً: ما أبرع أمَّ المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - وهي تقول للرسول صلى الله عليه وسلم كما ورد في بعض الروايات: بأبي أنت وأمِّي، لأنت خيرٌ لي من أبي زَرْعٍ لأم زرعٍ!!.

يالَه من تعاملٍ حضاريّ رفيع!

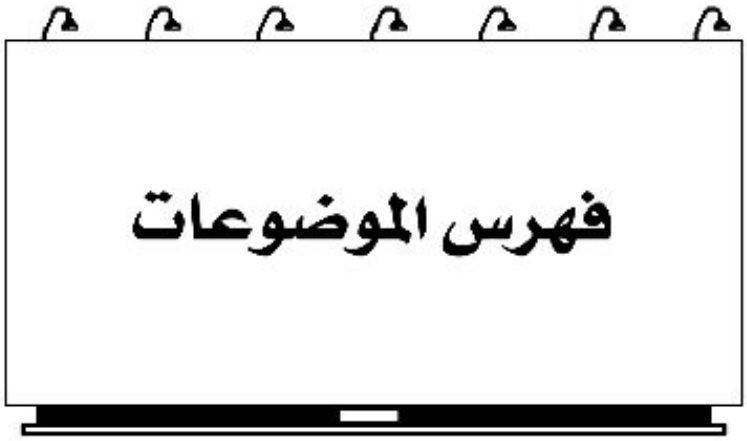

فهرس الموضوعات

المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهـداء	٥
بناء الإنسان	٧
صاحبة الحرير الأخضر	١٣
حجرة البيان	١٥
عائشة رضي الله عنها والحرير الأخضر	٢٧
سيدة اللغات	٣٧
ديوان العرب	٣٩
المذاق الخاص	٤١
ثروة أدبية	٤٤
ينابيع وأنهار	٤٦
ما ظنكم بأدب النبوة	٤٨
دراية وعناية	٥٣
توجيه عائشي	٥٥
الدقة في التعبير اللغوي	٥٩
بين الرضا والغضب	٦٣
صواحب عائشة	٦٦
الكلم المتحجر	٦٩
الدخول في السن	٧٢

الموضوع	الصفحة
الاستثناء الجميل	٧٤
الدقة في الوصف	٧٩
وئيد الأرض	٨١
دوحة بلاغية	٨٥
وقفة مع حديث بدء الوحي	٩٣
وعكة وشعر	١٠١
خسوف	١٠٧
شواهد قصيرة	١١٣
لا غرور ولا كبرياء	١٢١
الراوية العالمة	١٢٧
الراوية الناقدة	١٣٩
الراوية المفسرة	١٥٣
فقه النص	١٦٢
الراوية المنصفة	١٧١
حديث الإفك	١٨٣
نص حديث الإفك	١٩٤
وقفة مع مقاطع من روايات أخرى	٢٠٣
منوعات	٢٢١
وماذا بعد	٢٣١
رسالة إلى أم المؤمنين	٢٣٧
حديث أم زرع	٢٤١
لفهرس	٢٥٩